تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الأول

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمود الله ، جلت آلاؤه ، والمصلى عليه محمد وآله .

وبعد : فإنا لنشاهد فى عصرنا الحاضر ميل الناس إلى التزيد فى الثقافة الدينية ، ولا سيما تفسير الكتاب الكريم والسنة النبوية ، وكثيرا ما سئلت أىّ التفاسير أسهل منالا، وأجدى فائدة للقارئ فى الزمن القليل ؟ فكنت أقف واجما حائرا لا أجد جوابا عن سؤال السائل علما منى بأن كتب التفسير على ما فيها من فوائد جمة ، وأسرار دينية عظيمة وإيضاح لمغازى الكتاب الكريم ، قد حشيت بالكثير من مصطلحات الفنون : من بلاغة ونحو وصرف وفقه وأصول وتوحيد إلى نحو أولئك مما كان عقبة كأداء أمام قارئيها ، إلى ما فيها من أقاصيص مجانفة لوجه الصواب متنكبة عن حظيرة العقل ووجوه المعارف التى يصح تصديقها ، إلى تفسير للقضايا العلمية التى أشار إليها القرءان العزيز على حسب ما أيده العلم فى تلك العصور، وقد أثبت العلم فى هذا العصر وأيد الدليل والبرهان أنه لا ينبغى التعويل على مثل ما كان معروفا حينئذ ، إلى أن هذه المؤلفات وضعت ــ فى عصور قد خلت ــ بأساليب تناسب أهلها ، وكان مؤلفوها

يتباهون بإيجازها ويرون ذلك مفخرة لهم ، ولـكن الزمان وهو الحوّل القُلَّب غيّر آراء الناس فى الموسوعات العلمية ، فرأوا أن الـكتاب الذى لا يناجيك معناه لدى قراءة لفظه ، أولى لك ألا تضيع وقتك فى قراءته وكدّ الفـكر فى الوصول إلى المعمّى من معناه .

ومن ثم نهج الناس فى التأليف منهج السهولة والسلاسة مع تحقيق المسائل العلمية حتى تعتز بظاهرة الدليل والبرهان لهـا ، ونفوا الزائف الذى لا يقوم على ساقين ، ولا يستند إلى عصوين ، من تجربة واختبار ، وحجة وبرهان .

من جَرّاء هـذا رأينا مسيس الحاجة إلى وضع تفسير للـكتاب العزيز يشبع كل حاجة الناس فى عصرنا فى أسلوبه وطريق رصفه ووضعه ، ويكون دانى القطوف ، سهل المأخذ يحوى ما تطمئن إليه النفس من تحقيق علمى تدعمه الحجة والبرهان ، وتؤيده التجربة والاختبار ، ويضم إلى آراء مؤلفه آراء أهل الذكر من الباحثين فى مختلف الفنون التى ألمع إليها القرءان على نحو ما أثبته العلم فى عصرنا ، وتركنا الروايات التى أثبتت فى كتب التفسير ، وهى بعيدة عن وجه الحق مجانفة للصواب ، والله أسأل أن يوفقنا للرشاد ، ويهدينا إلى سواء السبيل ؟

أول المحرم عام ١٣٦٥ هـ **أحمد مصطفى المراغى**

عناية المسلمين بتفسير الكتاب الكريم

كتاب الله هو دستور التشريع ، ومنبع الأحكام التى طلب إلى المسلمين أن يعملوا بها ، ففيه بيان الحلال والحرام والأمر والنهى ، وكذلك هو معين الآداب والأخلاق التى أمروا أن يستمسكوا بها ، لتكون مصدر سعادتهم ، ومنبع هدايتهم ، ونيلهم الزُّلفى عند ربهم فى جنات النعيم ؛ كما أنها الوسيلة لإصلاح حال المجتمع الإسلامى إذا أخذوا بها ولم يحيدوا عن طريقها و ينحرفوا عن سَنَنها .

فلا غرو أن كان تفسيره ، و إيضاح ما أشكل عليهم فهمه منه — هجِّيراهم من بدء التنزيل فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كان هو النبراس الذى يضىء لهم ما خفى عليهم من أمور التشريع ومعرفة أسرار الدين .

ومما ساعد على ذلك أنه نزل مُنجَّما على حسب الحوادث والوقائع فى نيْف وعشرين سنة ، وقد كانت تنزل عليه الآية أو الآيات فى واقعة بعينها فيتدارسها مع صحبه ، ويفصل لهم مجملها ، ويوضح لهم مبهمها ، ويفسر لهم مشكلها ، حتى لا تبقى فى النفس بقية من لَبْس ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الهادى لهم إلى سواء السبيل ، والفاتح لهم ما استغلق من أمر دينهم، والمفسر لكتاب الله بسنته القولية وسنته الفعلية كما قال تعالى (وأنزلْنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم) وهكذا ظل دائبا حتى لحق بالرفيق الأعلى .

طبقات المفسرين

١ — التفسير فى عصر الصحابة

طفق المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يتدارسون القرآن ، ويتفهمون معناه بطريق الرواية عن صحبه الذين كانوا يجلسون فى حضرته كثيراً .

وقد اشتهر بالتفسير عشرة من الصحابة : الخلفاء الراشدون الأربعة أبو بكر وعمر

وعثمان وعلى ، ثم عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

وأكثر من روى عنه التفسير من الخلفاء على بن أبى طالب ، والرواية عن الثلاثة الباقين نادرة ، وروى عن ابن مسعود المتوفى بالمدينة سنة ٣٢ هـ أكثر مما روى عن على رضى الله عنه .

أما عبد الله بن عباس المتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ فهو ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، وشيخ المفسرين ، فقد روى عنه فى التفسير ما لا يحصى كثرة ، دعا له النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم فَقِّهْهُ فى الدين وعَلِّمه التأويل .

قال صاحب كشف الظنون ما نصه :

وأصح الطرق فى الرواية عنه :

(١) طريق على بن أبى طلحة الهاشمى المتوفى سنة ١٤٣هـ ، وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه .

(٢) طريق قيس بن مسلم الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ هـ عن عطاء بن السائب

(٣) طريق ابن إسحاق صاحب السيرة .

(٤) طريق أبى النصر محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦هـ ، وهى أَوْهَى الطرق ، ولا سيما إذا وافقتها طريق محمد بن مروان السُّدِّى الصغير المتوفى سنة ١٨٦هـ

وقد طبع تفسير ينسب إلى ابن عباس برواية الفيروزبادى صاحب القاموس ، سماه (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) .

وروى عن أُبى بن كعب المتوفى سنة ٢٠هـ تفسير كبير رواه عنه أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية ، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أقرأ الصحابة وسيد القراء .

وزيد بن ثابت الأنصارى المتوفى سنة ٤٥ هـ أحد كتاب الوحى ، وهو الذى جمع المصحف أولا فى عهد أبى بكر ، ثم كان رئيس الجماعة الذين كتبوا المصحف فى عهد عثمان .

وأبو موسى الأشعرى هو عبد الله بن قيس الأشعرى المتوفى سنة ٤٤ هـ .

٣ — التفسير فى عهد التابعين

أعلم الناس بالتفسير فى هذا العصر :

ا — علماء مكة أصحاب عبد الله بن عباس وأشهرهم :

(١) مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٣هـ وقد قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، واعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى .

(٢) سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ هـ .

(٣) عِكرِمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة ١٠٥ هـ .

(٤) طاوس بن كيسان اليمانى المتوفى بمكة سنة ١٠٦ هـ .

(٥) عطاء بن أبى رَباح المكى المتوفى سنة ١١٤ هـ .

قال سفيان الثورى : خذوا التفسير عن أربعة : عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك . وقال قَتادة : كان أعلم التابعين أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير ، وكان عكرمة أعلمهم بالسير ، وكان الحسن (١) أعلمهم بالحلال والحرام .

ب — علماء الكوفة أصحاب ابن مسعود وأشهرهم :

(١) علقمة بن قيس المتوفى سنة ١٠٢ هـ .

(٢) الأسود بن يزيد المتوفى سنة ٧٥ هـ .

(٣) إبراهيم النخْعى المتوفى سنة ٩٥ هـ .

(٤) الشعبى المتوفى سنة ١٠٥ هـ .

حـ — علماء المدينة أصحاب زيد بن أسلم العدوى المدنى المتوفى سنة ١٣٦هـ ، وله تفسير يعد من أمهات التفاسير ، ومن أشهرهم :

---

(١) الحسن البصرى

(١) ابنه عبد الرحمن بن زيد المتوفى سنة ١٨٢ ﻫ .

(٢) مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ﻫ .

(٣) الحسن البصرى المتوفى سنة ١٢١ ﻫ .

(٤) عطاء بن أبى مسلم الخراسانى المتوفى سنة ١٣٥ ﻫ .

(٥) محمد بن كعب القُرظى المتوفى سنة ١١٧ ﻫ .

(٦) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى المتوفى سنة ٩٠ﻫ .

(٧) الضحاك بن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ .

(٨) عطية بن سعيد العوفى المتوفى سنة ١١١ ﻫ .

(٩) قتادة بن دعامة السَدوسى المتوفى سنة ١١٧ ﻫ .

(١٠) الربيع بن أنس المتوفى سنة ١٣٩ ﻫ .

(١١) اسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِى الكبير المتوفى سنة ١٢٧ ﻫ .

٣ — **طبقة ثالثة جمعت أقوال الصحابة والتابعين :**

وأشهر هؤلاء :

(١) سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ ﻫ .

(٢) وَكيع بن الجراح الكوفى المتوفى سنة ١٩٧ ﻫ .

(٣) شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ ﻫ .

(٤) يزيد بن هرون السُلمى .

(٥) عبد الرازق المتوفى سنة ٢١١ ﻫ .

(٦) آدم بن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢١ ﻫ .

(٧) إسحاق بن راهويه الإمام الحافظ النيسابورى المتوفى سنة ٢٣٨ ﻫ .

(٨) روح بن عبادة المتوفى سنة ٢٠٥ ﻫ .

(٩) عبد الله بن حميد الجهنى .

(١٠) أبو بكر بن أبى شيبة الإمام الحافظ الكوفى المتوفى سنة ٢٣٥ ﻫ .

٤ — الطبقة الرابعة طبقة ابن جرير :

تلت هؤلاء طبقة أخرى ، منها :

(١) على بن أبى طلحة المتوفى سنة ١٤٣ هـ .

(٢) ابن أبى حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ .

(٣) ابن ماجه الحافظ أبو عبد الله محمد القزوينى المتوفى سنة ٢٧٣ هـ .

(٤) ابن مردويه أبو بكر أحمد بن موسى الأصفهانى المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

(٥) أبو الشيخ بن حبان البستى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ .

(٦) ابرهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ هـ .

(٧) أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وهو من أشهر مفسرى هذا العصر . قال السيوطى فى الإتقان : وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وللإعراب ، والاستنباط ، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين اهـ . وقال النووى النيسابورى الشافعي فى تهذيبه : كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله ، وقال أبو إسحق الاسفرائينى : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً ، وروى أن ابن جرير قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثين ألف ورقة . قالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ، ذكر ذلك السبكى فى طبقاته .

٥ — الطبقة الخامسة طبقة المفسرين بحذف الأسانيد :

ألف بعد هؤلاء جماعة من المفسرين لهم تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد من أشهرهم :

(١) أبو إسحق الزجاج إبراهيم بن السرىّ النحوى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وقد سمى تفسيره (معانى القرآن) .

(٢) أبو على الفارسى الحجة الثبَت فى اللغة والبلاغة ، وصاحب المؤلفات الكثيرة فى مختلف الفنون ، توفى سنة ٣٧٧ ﻫ .

(٣) أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بالنقاش الموصلى المتوفى سنة ٣٥١ ﻫ .

(٤) أبو جعفر النحاس النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ ﻫ .

(٥) مكى بن أبى طالب القيسى النحوى المغربى المتوفى سنة ٤٣٧ ﻫ .

(٦) أبو العباس أحمد بن عمار المهدوى المتوفى سنة ٤٣٠ ﻫ وله تفسير يسمى (التفصيل الجامع لعلوم التنزيل) .

وقد دخل فى التفسير فى هذه الفترة الدخيل ، إذ نقلت الأقوال بتراً محذوفة الأسانيد ، فالتبس الصحيح بالعليل ، وصار كل من سنح له قول يورده ، ومن خطر بباله شىء يعتمده ، غير ملتفت إلى ما روى عن السلف الصالح فى ذلك ، ومن هم القدوة فى هذا الباب .

٦ — عصر المعرفة الإسلامية :

التقت فى البلاد الإسلامية تيارات العقل البشرى حاملة تراث المدنيات والحضارات اليونانية والفارسية والهندية ، ومرت بأهلها أعاصير من جدل أهل الكتاب يهودهم ونصاراهم ، فكان كل أولئك حافزاً للعلماء على أن يؤلفوا موسوعات فى التفسير تجمع بين دفتيها فنوناً من المعرفة لم يكن لهم بها سابقة عهد ، وسار الفكر الإسلامى حرا طليقا فى معرفتها حيناً ، ومقيداً حيناً آخر ، يحكّم العقل مرة ، ويسلس قياده للنص أخرى ، ويميل إلى التقليد حين الضعف والانحلال والركود الفكرى . ولما كان القرآن كتابا سماويا تنزل على قلب أكمل الأنبياء ، مشتملا على معارف عالية ومطالب سامية ، يجد المنقب عنها من الهيبة والجلال مايكاد يحول بينه وبين الوصول إليها — سهل سبحانه الأمر علينا ، فلم يطلب منا إلاّ الفهم والتدبر فى كلامه ، لأنه نزله نوراً وهدى للناس ، وجعله حاويا للشرائع والأحكام التى لا يمكن العمل بها إلا إذا فهمت حق الفهم ، واستوضحت مغازيها ، وكشفت

أسرارها ومراميها ، من حيث هى دين إلهى ، وهدى سماوى ، ترشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتيهم الدنيوية والأخروية ، وماسوى ذلك من وجوه النظر والبحث ، فتابع لذلك ، ووسيلة إليه فى التحصيل ، ولا يعنينا العناية التى نهتم لها اهتمامنا بالمطلب الأول ، لـكن كثيراً من المفسرين ، جعلوا عنايتهم تـكاد تـكون وقفاً على الوسائل دون المقاصد :

(١) فمنهم من وجه النظر إلى البحث فى أساليب الـكتاب ومعانيه ، و بيان ما احتوى عليه من بلاغة وفصاحة ، وأطنب فى ذلك وجعل مقصده بيان ميزته عن غيره من الكلام و إظهار إعجازه للناس ، ليتبين لهم كيف أعجز مقاويل العرب وفصحاءهم ، وكيف استخذَوا أمامه ووقفوا واجمـــين ؟ وكيف لجئوا إلى السيف والسنان ، دون مقابلة البرهان بالبرهان ؟ وكيف عُمِّى عليهـم الأمر ؟ فلم يجدوا لرد التحدى سبيلا .

وقد سلك هذا المسلك الزمخشرى فى كشافه ، فألم بالـكثير من مقاصد البلاغة ، وأبدع فيها أيمـا إبداع ، ونحا نحوه خلق كثير .

(٢) ومنهم من وجه النظر إلى إعرابه وتوسع فى بيان وجوهه ، حتى كأن القرءان لهذا أنزل ، وممن سلك هـــذا المسلك الزّجاج فى تفسيره معانى القرءان ، والواحدى النيسابورى فى تفسيره (البسيط) ، وأبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى فى البحر المحيط .

(٣) ومنهم من وجه النظر إلى القصص والأخبار عمن سلف ، وقد نحا هـذا النحو أقوام زادوا فى قصص القرءان ما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات ، وليتهم اقتصروا على النقل من التوراة والإنجيل والـكتب المعتمدة لدى أهل الـكتاب، لـكنهم أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ، ولا تنقيح لمـا يخالف الشرع ولا يطابق العقل ، ومن أشهر هؤلاء الثعلبى، وصاحب الخازن علاء الدين ابن محمد البغدادى المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

(٤) ومنهم من وجَّه همه إلى الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وكيفية استنباطها من الآيات ، وربما استطردوا إلى إقامة الأدلة عليها ، والرد على المخالفين مما لا تعلق له بالتفسير كما فعل القرطبي فى تفسيره .

(٥) ومنهم من عُنى بالكلام فى أصول العقائد ومقارعة الزائغين ، ومحاجة المخالفين ، وللإمام الرازى المتوفى سنة ٦١٠ هـ فى ذلك القِدْح المعلَّى فى تفسيره الكبير المسمى بمفاتيح الغيب ، فقد خرج فيه من باب إلى باب ، حتى ليقضى الناظر العجب من صنيعه . قال أبو حيان فى البحر : جمع الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة إليها فى علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شىء إلا التفسير اهـ .

(٦) ومنهم من اتجه إلى الوعظ والرقائق ممزوجة بحكايات المتصوفة والعباد ، وفى بعضها خروج عن حدود الفضائل والآداب التى جرى عليها القرءان .

(٧) ومنهم من سلك طريق التفسير بالإشارة إلى دقائق لا تنكشف إلا لأرباب السلوك ، ويمكن إرادتها مع إرادة ظاهر المعنى ، وقالوا إن ذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان .

ولقد نعلم أن الإكثار فى مقصد من هذه المقاصد يُدخل النقص على الغرض الأصلى من تفسير الكتاب الكريم ، وهو فهم الكتاب من حيث هو دين وهداية للناس فى دنياهم وآخرتهم .

٧ — طريق كتابة القرآن الكريم :

من المعروف أن لكتابة القرءان طريقاً خاصة تخالف الطريق التى اتبعها العلماء فيما بعد ودرجوا عليها ، ودونوا فيها كتبا تعرف بعلم رسم الحروف ، أو علم الإملاء ، وبه كتبت جميع المؤلفات من القرن الثالث فما بعده إلى اليوم .

أما كتابة المصحف فهى تابعة للطريق التى كتب بها المصحف فى عهد عثمان ابن عفان الخليفة الثالث على يد جماعة من كبار الصحابة وتسمى (الرسم العثمانى) ، وقد اتبع فيها نهج خاص يخالف ما اتبع فيما بعد فى كثير من المواضع ، ومن ثم قيل : خطان لا يقاس عليهما : خط العروض ، وخط المصحف العثمانى .

آراء العلماء فى التزام الرسم العثمانى

فى كتابة المصاحف

الرأى الأول — عبرعنه الإمام أحمد بقوله : تحرم مخالفة خط عثمان فى واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك . وقال أبو عمرو الدانى : لامخالف لما حكى عن مالك من وجوب الـكتابة على الـكِتْبة الأولى من علماء الأمة .

الرأى الثانى — أن رسم المصاحف اصطلاحى لاتوقيفى ، وعليه فتجوز مخالفته، وممن جنح إلى هذا الرأى ابن خلدون فى مقدمته ، وممن تحمس له القاضى أبو بكر فى الانتصار ، إذ قال : وأما الـكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيهما شيئاً ، إذ لم يأخذ على كتّاب القرءان وخطاطى المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لايدرك إلابالسمع والتوقيف ، وليس فى نصوص الـكتاب ولا مفهومه أن رسم القرءان وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحـد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ، ولا نهى عن كتابته بغيره .

ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهـم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه أن ذلك اصطلاح ، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الـكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الـكاف ، وأن تعوج الألفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القـديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف ، وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة ،

وكان الناس قد أجازوا ذلك ، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته ، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان .

والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكتابة به على أى صورة كانت . وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنى له ذلك؟ اه .

الرأى الثالث — يميل صاحب التبيان ومن قبله صاحب البرهان إلى ما يفهم من كلام العز بن عبد السلام ، من أنه يجوز بل يجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثمانى الأول ، لئلا يوقع فى تغيير من الجهال ، ولكن يجب فى الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثمانى كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاته لجهل الجاهلين ، بل يبقى فى أيدى العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض . وهاك عبارة التبيان قال :

وأما كتابته (المصحف) على ما أحدث الناس من الهجاء فقد جرى عليه أهل الشرق بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتحاماه أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك، وقد سئل هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : لا . إلا على الكتبة الأولى .

قال فى البرهان : قلت وهذا كان فى الصدر الأول والعلم حى غض ، وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة لئلا يوقع فى تغيير من الجهال ، ولكن لا ينبغى إجراء هذا على إطلاقه ، لئلا يؤدى إلى دروس العلم ، وشىء قد أحكمه القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجته اه .

وقد جرينا على الرأى الذى أوجبه العز بن عبد السلام فى كتابة الآيات أثناء التفسير للعلة التى ذكرها ، وهى فى عصرنا أشد حاجة إليها من تلك العصور ، على أن الخلاف بينهم فى المصحف لا فى القرآن ولو أثناء التفسير كما فعلنا .

خدمتى للغة العربية والكتاب الكريم

لقد سعدت بخدمتى للغة العربية نحو نصف قرن درسا وتدريسا ، وتأليفا وتصنيفا ، أتتبع أساليبها فى آى القرءان الحكيم ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشعر والنثر ، حتى وجدتُنى كلفا ، بأن أتوج خدمتى لهذه اللغة بتأليف تفسير آى الذكر الحكيم المسمى (تفسير المراغى) .

وقصاراى أن أسير فى قافلة الحاملين لشعل المعرفة الإسلامية ، مؤديا بعض ما يجب على نحو الكتاب الكريم من الكشف عن بعض أسراره ومغازيه .

نهجنا الذى سلكناه فى هذا التفسير

رأينا أن ندلى إليك أيها القارئ ، بالنهج الذى اتبعناه فى التأليف ، لتكون على بينة من أمره :

(١) ذكر الآيات فى صدر البحث

صدرنا كل بحث بآية أو آيتين أو آيات من الكتاب الكريم ، سيقت لتؤدى غرضا واحدا .

(٢) شرح المفـردات

أردفنا ذلك بتفسير مفرداتها اللغوية ، إن كان فيها بعض الخفاء على كثير من القارئين .

(٣) المعنى الجملى للآيات

أتبعنا ذلك بذكر المعنى الجملى لهذه الآية أو الآيات ليتجلى للقارئ منها صورة مجملة حتى إذا جاء التفسير وضح ذاك المجمل .

(٤) أسباب النزول

أعقبنا ذلك بما ورد من أسباب النزول لهذه الآيات ، إن صح شيء من ذلك لدى المفسرين بالمأثور .

(٥) الإعراض عن ذكر مصطلحات العلوم

ضربنا صفحا عن ذكر مصطلحات العلوم : من نحو وصرف وبلاغة إلى أشباه ذلك ، مما أدخله المفسرون فى تفاسيرهم ، فكان من العوائق التى حالت بين جمهرة الناس وقراءة كتب التفسير ، فقد وجدوا طِلَّسْمَات وألغازا يصعب عليهم فهمها والسير قُدُماً فى استيعاب قراءة التفسير ، لأنها من ألوان الصناعات التى يخص بها قوم من الناس ، وتكون عونا لهم على فهم الأساليب العربية فهم دراسة وتعمق ، كما يخص قوم من الأمة بالحياكة والنجارة والحدادة إلى أشباه ذلك .

(٦) أسلوب المفسرين

رأينا أن الأساليب التى كتبت بها كتب التفسير وضعت فى عهود سحيقة بأساليب تناسب أهل العصور التى ألفت فيها ويسهل عليهم فهمها ، وأن جمهرتهم أوجزوا فى القول وعدوا ذلك مفخرة لهم .

ولما كان لكل عصر طابع خاص يمتاز به عن غيره فى آداب أهله وأخلاقهم وعاداتهم وطرائق تفكيرهم — وجب على الباحثين فى هذا العصر مجاراة أهله فى كل ما تقدم ، فكان لزاما علينا أن نتلمس لونا من التفسير لكتاب الله بأسلوب

عصرنا موافقا لأمزجة أهله ، فأساس التخاطب أن لـكل مقام مقالا ، وأن الناس يخاطبون على قدر عقولهم ، وقد رأينا أن نشيد فيـه بجهود السابقين معترفين بفضلهم مستندين إلى آرائهم .

وقد سلـكنا فى الوصول إلى فهم كتاب الله فى مسئلة بعينها استطلاع آراء العارفين بها ، فاستطلعنا آراء الطبيب النطاسى، والفلـكى العارف، والمؤرخ الثبت، والحـكيم البصير ليدلى كل برأيه فيما تمهر فيه ، لنعلم ما أثبته العلم وأنتجه الفـكر ، فيكون كلامنا معتزا بكرامة المعرفة التى تشرف بتفهم كتاب الله ، فرجل الدين حامل لوائها ، عليه أن يسأل العلم دائما ليستبصر بمـا ثبت لديه ، ويساير عصره ما وجد إلى ذلك سبيلا ، فإن قعدت به همته إلى الموروث من قضاياه لدى الماضين ركب شططا وازداد بعدا عن الحقيقة ، وتضاءل أمام نفسه وأمام قارئى بحوثه ومؤلفاته .

(٧) ميزة العصر الحاضر فى وسائل التفاهم

ميزة عصرنا أن الـكلام وسيلة فهم الغرض حين التخاطب ، فلا حاجة إلى النقاش وصنوف التأويل لفهم المعنى ، ومن ثم كان أهم ما عملت أن أقرأ فى الموضوع الواحد ما كتبه أعلام المفسرين على اختلاف نزعاتهم وتباين أزمنتهم حتى إذا اطمأننت إلى فهم ما قرأت وتمثلته وهضمته ، كتبته بأسلوب العصر الحاضر ، وهذا هو نهجى فى كل جزء من أجزاء هذا التفسير .

وما حملنى على ركوب هذا المركب الخشن ، واقتحام هذه العقبات إلا انصراف القارئين عن قراءة كتب التفسير التى بين أيدينا بدعوى أنهـا صعبة المدخل مفعمة بكثير من المصطلحات ، لا يعلمها إلا من أتقن هذه الفنون من العلماء ، واستبدلت بأساليب المؤلفين أسلوبا سهل المأخذ قليل الـكلفة فى الفهم ، حتى يستطيع القارئ أن يلم بأسرار كتاب الله دون كد ولا نصب .

(٨) تمحيص روايات كتب التفسير

أشار الكتاب الكريم إلى كثير من تاريخ الأمم الغابرة التى حل بها العذاب على ما اجترحت من الآثام ، وإلى بدء الخلق وتكوين الأرض والسموات ، ولم يكن لدى العرب من المعرفة ما يستطيعون به شرح هذه المجملات التى أشار إليها الكتاب ، إذ كانوا أمة أمية فى صحراء نائية عن مناهل العلم والمعرفة ، والإنسان بطبعه حريص على استكناه المجهول ، واستيضاح ما عزت عليه معرفته ، فألجأتهم الحاجة إلى الاستفسار من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولاسيما مسلمتهم كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، ووهب بن مُنَبِّه ، فقصوا عليهم من القصص ما ظنوه تفسيرا لما خفى عليهم فهمه من كتابهم ، ولكنهم كانوا فى ذلك كحاطب ليل ، يجمع بين الشذرة والبعرة ، والذهب والشَّبَه، ولم تكن علوم القصاص ممحصة ولامهذبة ، بل كان ينقصها الميزان العلمى الذى به يتعرف جيد الرأى، من بهرجه وصحيحه من سقيمه ، فساقوا إلى المسلمين من الآراء فى تفسير كتابهم ماينبذه العقل ، وينافيه الدين ، وتكذبه المشاهدة ، ويبعده كل البعد ما أثبته العلم فى العصور اللاحقة .

وما كان مثلهم ومثل العرب الذين استوضحوهم بعض ما استعصى عليهم فهمه إلا مثل السائح الأوربى إذا جاء إلى سفح الأهرام بمصر ، وسأل العرب الضاربين خيامهم حولها . لم بنيت الأهرام ؟ ومن بناها ؟ ومتى بنيت ؟ وكيف بنيت ؟ فيجيبونه إجابات بعيدة عن الحقيقة ومجانفة وجه الصواب .

ومن ثَم رأينا ألا نذكر رواية مأثورة إلا إذا تلقاها العلم بالقبول ولم نر فيها ما يتنافر مع قضايا الدين التى لا خلاف فيها بين أهله ، وقد وجدنا أن ذلك أسلم لصادق المعرفة ، وأشرف لتفسير كتاب الله ، وأجذب لقلوب المثقفين ثقافة علمية ، لا يقنعها إلا الدليل والبرهان ونور المعرفة الصادقة .

(٩) عدد أجزاء هذا التفسير

جعلت تفسيرى ثلاثين جزءاً ، لكل جزء من القرآن الـكريم جزء خاص من التفسير ، ليسهل على القارىء حمل هـذا الجزء واستصحابه معه فى حله وترحاله ، فى قطر السكك الحديدية ، وفى الترام ، وفى كل مكان ينتقل إليه .

وكان من فأل الطالع أن بدئ بنشر هذا التفسير فى أول العام الهجرى الجديد عام ١٣٦٥ ﻫ .

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الـكريم ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يوفقنا لخدمة دينه ولغة كتابه الـكريم .

أحمد مصطفى المراغى

مراجع التفسير

(١) تفسير أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ .
(٢) تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل لأبى القاسم جار الله الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ .
(٣) حاشية شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧١٣ ﻫ على الكشاف .
(٤) أنوار التنزيل للقاضى ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة ٦٩٢ ﻫ .
(٥) تفسير أبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المتوفى فى رأس المائة الخامسة .
(٦) تفسير البسيط للامام أبى الحسن الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨ ﻫ .
(٧) التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦١٠ ﻫ .
(٨) تفسير الحسين بن مسعود البغوى المتوفى سنة ٥١٦ ﻫ .
(٩) غرائب القرءان لنظام الدين الحسن بن محمد القمى .
(١٠) تفسير الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ ﻫ .
(١١) البحر المحيط لأثير الدين أبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ ﻫ .
(١٢) نظم الدرر فى تناسب الآى والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ ﻫ .
(١٣) تفسير أبى مسلم الأصفهانى المتوفى سنة ٤٥٩ ﻫ .
(١٤) تفسير القاضى أبى بكر الباقلانى .
(١٥) تفسير الخطيب الشربينى المسمى بالسراج المنير .
(١٦) روح المعانى للعلامة الألوسى .

(١٧) تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا وهو تفسير مقتبس من دروس الأستاذ الإمام محمد عبده ، وقد كان له فضل كبير فيا اقتبسناه أثناء تفسير الأجزاء التى فسرها .

(١٨) تفسير الجواهر للأستاذ طنطاوى جوهرى .

(١٩) سيرة ابن هشام .

(٢٠) شرح العلامة ابن حجر للبخارى .

(٢١) شرح العلامة العينى للبخارى .

(٢٢) لسان العرب لابن منظور الإفريقى المتوفى سنة ٧١١ هـ .

(٢٣) شرح القاموس للفيروزبادى المتوفى سنة ٨١٦ هـ .

(٢٤) أساس البلاغة للزمخشرى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ .

(٢٥) الأحاديث المختارة للضياء المقدسى .

(٢٦) طبقات الشافعية لابن السبكى .

(٢٧) الزواجر لابن حجر .

(٢٨) أعلام الموقعين لابن تيمية .

(٢٩) الإتقان فى علوم القرءان للعلامة السيوطى .

(٣٠) مقدمة ابن خلدون .

سورة الفاتحة

السورة طائفة من القرءان مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر لها اسم يعرف بطريق الرواية ، وقد روى لهذه السورة عدة أسماء اشتهر منها : أم الكتاب . أم القرءان . (لاشتمالها على مقاصد القرءان من الثناء على الله والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده) ، والسبع المثانى (لأنها تثنى فى الصلاة) ، والأساس (لأنها أصل القرءان وأول سورة فيه) ، والفاتحة (لأنها أول القرءان فى هذا الترتيب أوأول سورة نزلت) فقد أخرج البيهقى فى كتابه الدلائل عن أبى ميسرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً فقالت معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء ، وإنه صلى الله عليه وسلم لما خلا ناداه الملك يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ـ حتى بلغ ولا الضالين .

وقد رجح هذا بأنها مشتملة على مقاصد القرءان على سبيل الإجمال ثم فصل ما أجملته بعد .

بيان هذا أن القرءان الكريم اشتمل على التوحيد ، وعلى وعد من أخذ به بحسن المثوبة ووعيد من تجافى عنه وتركه بسيء العقوبة، وعلى العبادة التى تحيي التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس ، وعلى بيان سبيل السعادة الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة ، وعلى القصص الحاوى أخبار المهتدين الذين وقفوا عند الحدود التى سنها الله لعباده وفيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، والضالين الذين تعدوا الحدود ونبذوا أحكام الشرائع وراءهم ظهريا .

وقد حوت الفاتحة هذه المعانى جملة ، فالتوحيد يرشد إليه قوله (الحمد لله رب

العالمين) لأنه يدل على أن كل ثناء وحمد يصدر عن نعمة فهو له ، ولن يكون هذا إلا إذا كان عز اسمه مصدر النعم التى تستوجب الحمد ، وأهمها نعمة الإيجاد والتربية وذلك صريح قوله (رب العالمين) وقد استكمله بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) و بذلك اجتث جذور الشرك التى كانت فاشية فى جميع الأمم ، وهى اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات و يتقرب بهم إلى الله زلفى .

والوعد والوعيد يتضمنهما قوله (مالك يوم الدين) إذ الدين هو الجزاء وهو إما ثواب للمحسن و إما عقاب للمسىء ، والعبادة تؤخذ من قوله : (إياك نعبد و إياك نستعين) .

وطريق السعادة يدل عليه قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذ معناه أنه لا تتم السعادة إلا بالسير على ذلك الصراط القويم ، فمن خالفه وانحرف عنه كان فى شقاء مقيم .

والقصص والأخبار يهدى إليها قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) فهو يرشد إلى أن هناك أمما قد مضت وشرع الله شرائع لهديها فاتبعتها وسارت على نهجها فعلينا أن نحذو حذوها ونسير على سننها ، وقوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يدل على أن غير المنعم عليهم صنفان : صنف خرج عن الحق بعد علمه به وأعرض عنه بعد أن استبان له ورضى بما ورثه عن الآباء والأجداد وهؤلاء هم المغضوب عليهم ، وصنف لم يعرف الحق أبدا أو عرفه على وجه مضطرب مهوش ، فهو فى عماية تلبس الحق بالباطل وتبعد عن الجادة الموصلة إلى الصراط السوى ، وهؤلاء هم الضالون .

وهذه السورة إحدى السور المكية التى نزلت قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وعدة آيها سبع .

وقد نزل القرءان الكريم منجما أى مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث التى دعت إلى نزوله ، وقد نزل بعضه بمكة قبل الهجرة و بعضه بالمدينة بعدها ، ولكل من المكى والمدنى ميزات يعرف بها .

فمن ميزات المكى أنه نزل لبيان أسس الدين من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، مع إيجاز فى التعبير واختصار فى الأسلوب ، و يتضح ذلك جليا فى قصار المفصل كالحاقة والواقعة والمرسلات . ومن ميزات المدنى أنه جاء بأحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية فى السلم والحرب ، وأصول التشريع للحكومات الإسلامية ـ إلى إسهاب فى الأسلوب و بسطة فى القول ولا سيما عند محاجة أهل الكتاب والنعى عليهم بتحريف ما أنزل إليهم ودعوتهم إلى التوحيد الخالص و بيان أن الإسلام الذى جاء به القرءان هو دين الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

تمهيد

يرى بعض الصحابة - كعلى وابن عباس وابن عمر وأبى هريرة ، و بعض التابعين كسعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك و بعض فقهاء مكة وقرائها ومنهم ابن كثير ، و بعض قراء الكوفة وفقهائها ومنهم عاصم والكسائى والشافعى وأحمد - أن البسملة آية من كل سورة من سور القرءان الكريم .

ومن أدلتهم على ذلك :

(١) إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها فى المصحف أول كل سورة عدا سورة براءة ، مع الأمر بتجريد القرءان من كل ما ليس منه ، ومن ثم لم يكتبوا (آمين) فى آخر الفاتحة :

(٢) ما ورد فى ذلك من الأحاديث ، فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » ، وروى أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف انقضاء السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) وروى الدارقطنى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرءان والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها .

(٣) أجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، والبسملة بينهما فوجب جعلها منه .

و يرى مالك وغيره من علماء المدينة ، والأوزاعى وجماعة من علماء الشام وأبو عمرو يعقوب من قراء البصرة وهو الصحيح من مذهب أبى حنيفة - أنها آية مفردة من القرءان أنزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها .

ويرى عبد الله بن مسعود أنها ليست من القرءان أصلا وهو رأى بعض الحنفية .

ومن أدلتهم على ذلك حديث أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا آخرها .

الإيضاح

(بسم) الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات كمحمد وإنسان ، أو معنى كعلم وأدب .

وقد أمرنا الله بذكره وتسبيحه فى آيات فقال (فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) وقال (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقال : (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) .

وأمرنا بذكر اسمه وتسبيحه فى آيات أخرى فقال (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) وقال (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وقال (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) .

ومن ذلك يعلم أن ذكر المسمى مطلوب بتذكر القلب إياه ونطق اللسان به لأنه دليل على ذكر القلب بتذكر عظمته وجلاله ونعمه المتظاهرة على عباده ، وذكره باللسان هو ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر إليه وطلب المعونة منه على إيجاد الأفعال وإحداثها .

وكذلك ذكر الاسم مشروع ومطلوب ، فيعظم الاسم مقرونا بالحمد والشكر وطلب المعونة فى كون الفعل معتدا به شرعا ، فإنه مالم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم .

(الله) علم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره ، وكان العربى فى الجاهلية إذا سئل من خلق السموات والأرض ؟ يقول الله ، وإذا سئل هل خلقت اللات والعزّى شيئا من ذلك ؟ يجيب (لا) .

والإله اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بالحق .

(الرحمن الرحيم) كلاهما مشتق من الرحمة وهى معنى يقوم بالقلب يبعث صاحبه على الإحسان إلى سواه ، ويرادمنهافى جانب المولى عزّ اسمه أثرها وهو الإحسان .

إلا أن لفظ (الرحمن) يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة وهى إسباغ النعم والإحسان ، ولفظ (الرحيم) يدل على منشأ هذه الرحمة وأنها من الصفات الثابتة اللازمة له ، فإذا وصف الله جل ثناؤه بالرحمن استفيد منه لغة أنه المفيض للنعم ، ولكن لا يفهم منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما ، وإذا وصف بعد ذلك بالرحيم علم أن لله صفة ثابتة دائمة هى الرحمة التى يكون أثرها الإحسان الدائم ، وتلك الصفة على غير صفات المخلوقين ، وإذا يكون ذكر الرحيم بعد الرحمن كالبرهان على أنه يفيض الرحمة على عباده دائما لثبوت تلك الصفة له على طريق الدوام والاستمرار .

افتتح عزّ اسمه كتابه الكريم بالبسملة إرشادا لعباده أن يفتتحوا أعمالهم بها ، وقد ورد فى الحديث كل أمر ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر (أى مقطوع الذنب ناقص) .

وقد كان العرب قبل الإسلام يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات أو باسم العزى ، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم ، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمرا مرضاة لملك أو أمير يقول أعمله باسم فلان ، أى أن ذلك العمل لا وجود له لولا ذلك الملك أو الأمير .

وإذاً فمعنى أبتدئ عملى باسم الله الرحمن الرحيم أننى أعمله بأمر الله ولله لا لحظ نفسى وشهواتها .

ويمكن أن يكون المراد — أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله ولولا ما أعطانى من القدرة لم أفعل شيئا فأنا أبرأ من أن يكون عملى باسمى بل هو باسمه تعالى ، لأننى أستمد القوة والعون منه ، ولولا ذلك لم أقدر على عمله ، وإذا فمعنى البسملة التى جاءت أول الكتاب الكريم ، أن جميع ماجاء فى القرءان من الأحكام

والشرائع والأخلاق والآداب والمواعظ ـ هو لله ومن الله ليس لأحد غير الله فيه شيء ، وكأنه قال اقرأ يا محمد هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم ، أى اقرأها على أنها من الله لا منك ، فإنه أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يقصد من تلاوتها على أمته أنه يقرأ عليهم هذه السورة باسم الله لا باسمه أى أنها من الله لا منه ، فإنما هو مبلغ عنه تبارك وتعالى كما جاء فى قوله (وأمرت أن أكون أول المسلمين ، وأن أتلو القرءان فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) .

« اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) » .

الإيضاح

(الحمد لله رب العالمين) الحمد لغة هو المدح على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره ، سواء أسداه إلى الحامد أو إلى غيره .

والمدح يعم هذا وغيره فيقال مدح المال ومدح الجمال ومدح الرياض .

والثناء يستعمل فى المدح والذم على السواء ، فيقال أثنى عليه شرا كما يقال أثنى عليه خيرا .

والشكر هو الاعتراف بالفضل إزاء نعمة صدرت من المشكور ـ بالقلب أو باللسان أو باليد أو غيرها من الأعضاء كما قال شاعرهم :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجّبا

يريد أن يدى ولسانى وقلبى لكم ، فليس فى القلب إلا نصحكم ومحبتكم ، ولا فى اللسان إلا الثناء عليكم ومدحكم ، ولا فى اليد وسائر الجوارح والأعضاء إلا مكافأتكم وخدمتكم .

وورد فى الأثر ـ الحمد رأس الشكر ، ما شكر اللهَ عبدٌ لم يحمده . وقد جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على من أسداها ، يشهرها بين الناس ويجعل صاحبها القدوة المؤتسى به ، أما الشكر بالقلب فهو خفى قلَّ من يعرفه ، وكذلك الشكر بالجوارح مبهم لا يستبين لكثير من الناس .

(لله) هو المعبود بحق لم يطلق على غيره تعالى .

(رب) هو السيد المربى الذى يسوس من يربيه ويدبر شئونه .

وتربية الله للناس نوعان ، تربية خَلْقِية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد ، وتميه قواهم النفسية والعقلية ـ وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم ـ وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحل شيئا ويحرم آخر إلا بإذن منه .

ويطلق الرب على الناس فيقال رب الدار ، ورب هذه الأنعام كما قال تعالى حكاية عن يوسف صلوات الله عليه فى مولاه عزيز مصر (إنه ربى أحسن مثواى) وقال عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشى : أما الأبل فأنا ربها ، وأما البيت فإن له ربا يحميه.

(العالمين) واحدهم عالم (بفتح اللام) ويراد به جميع الموجودات ، وقد جرت عادتهم ألا يطلقوا هذا اللفظ إلا على كل جماعة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العقلاء إن لم تكن منهم ، فيقولون عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات ، ولا يقولون عالم الحجر ، ولا عالم التراب ، ذاك أن هذه العوالم هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يفيده لفظ (رب) إذ يظهر فيها الحياة والتغذية والتوالد .

والخلاصة ـ أن كل ثناء جميل فهو لله تعالى إذ هو مصدر جميع الكائنات ، وهو الذى يسوس العالمين ويربيهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلهمهم ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فله الحمد على ما أسدى ، والشكر على ما أولى .

(الرحمن الرحيم) قد سبق أن قلنا إن معنى الرحمن المفيض للنعم المحسن على عباده

بلا حصر ولا نهاية ، ولفظه خاص بالله تعالى ولم يسمع عن العرب إطلاقه على غيره تعالى إلا فى شعر لبعض من فتن بمسيلمة الكذاب :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

والرحيم هو الثابت له صفة الرحمة التى عنها يكون الأحسان .

وقد ذكر سبحانه هذين الوصفين ليبين لعباده أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليقبلوا على عمل ما يرضيه وهم مطمئنو النفوس منشرحو الصدور ، لا ربوبية جبروت وقهر لهم .

والعقوبات التى شرعها الله لعباده فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة لمن تعدى حدوده وانتهك حرماته ــ هى قهر فى الظاهر ورحمة فى الحقيقة ، لأنها تربية للناس وزجر لهم حتى لا ينحرفوا عن الجادة التى شرعها لهم إذ فى اتباعها سعادتهم ونعيمهم ، وفى تجاوزها شقاؤهم وبلاؤهم ، ألا ترى إلى الوالد الرءوف كيف يربى أولاده بالترغيب فى عمل ما ينفع والإحسان إليهم إذا لزموا الجادة ،فإذا هم حادوا عن الصراط السوى لجأ إلى الترهيب بالعقوبة حين لا يجد منها محيصا قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

(مالك يوم الدين) قرأ بعض القرّاء مالك ، وبعض آخر ملك ، والفارق بينهما أن المالك هو ذو الملك (بكسر الميم) والملك هو ذو الملك (بضم الميم) وقد جاء فى الكتاب الكريم ما يعاضد كلا من القراءتين ، فيعاضد الأولى قوله (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) ويعاضد الثانية قوله (لمن الملك اليوم) .

قال الراغب : والقراءتان وإن رويتا عن جمع كثير من الصحابة ، فالثانية يكتنفها من الجلال والروعة وإثارة الخشية ما لا يوجد مثله فى القراءة الأولى ، فهى تدل على أنه سبحانه هو المتصرف فى شئون العقلاء بالأمر والنهى والجزاء ، ومن ثم يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء :

والدين يطلق لغة على الحساب ، وعلى المكافأة ، وعلى الجزاء ، وهو المناسب هنا ،

وإنما قال مالك يوم الدين ، ولم يقل مالك الدين ليعلم بأن للدين يوما معينا يلقى فيه كل عامل جزاء عمله .

والناس وإن كانوا يلاقون جزاء أعمالهم فى الدنيا باعتبارهم أفرادا من بؤس وشقاء جزاء تفريطهم فى أداء الحقوق والواجبات التى عليهم — فربما يظهر ذلك فى بعض دون بعض ، فانا نرى كثيراً من المنغمسين فى شهواتهم يقضون أعمارهم وهم متمتعون بلذاتهم ، نعم إنهم لا يسلمون من المنغصات ، وربما أتتهم الجوائح فى أموالهم ، واعتلت أجسامهم ، وضعفت عقولهم ، ولكن هذا لا يكون جزاء كاملا لما اقترفوه من عظيم الموبقات وكبير المنكرات ، كذلك نرى كثيرا من المحسنين يبتلون بهضم حقوقهم ولا ينالون ما يستحقون من حسن الجزاء ، نعم إنهم ينالون بعض الجزاء بإراحة ضمائرهم وسلامة أجسامهم وصفاء ملكاتهم وتهذيب أخلاقهم ولكن ليس هذا كل ما يستحقون من الجزاء ، فاذا جاء ذلك اليوم استوفى كل عامل جزاء عمله كاملا إن خيراً فخير وإن شرا فشر جزاء وفاقا لما عمل (ولا يظلم ربك أحدا) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

أما الناس باعتبارهم أمما وجماعات فيظهر جزاؤهم فى الدنيا ظهوراً تاما ، فما من أمة انحرفت عن الصراط السوى ولم تراع سنة الله فى الخليقة إلا حل بها ما تستحق من الجزاء من فقر بعد غنى وذل بعد عزة ومهانة بعد جلال وهيبة .

وقد جاء قوله (مالك يوم الدين) إثر قوله (الرحمن الرحيم) ليكون كترهيب بعد ترغيب ، وليعلمنا أنه تعالى ربى عباده بكلا النوعين من التربية ، فهو رحيم ومجاز لهم على أعمالهم كما قال (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) .

(إياك نعبد وإياك نستعين) العبادة خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن سلطانا لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره أو يرقى إليه إدراكه .

فمن يتذلل لملك لا يقال إنه عبده ، لأن سبب التذلل معروف ، وهو إما الخوف من جوره وظلمه ، وإما رجاء كرمه وجوده ، وللعبادة صور وأشكال تختلف باختلاف الأديان والأزمان ، وكلها شرعت لتنبيه الإنسان إلى ذلك السلطان الأعلى والملكوت الأسمى ، ولتقويم المعوج من الأخلاق وتهذيب النفوس ، فان لم تحدث هذا الأثر لم تكن هى العبادة التى شرعها الدين .

هاك الصلاة تجد أن الله أمرنا بإقامتها والإتيان بها كاملة وجعل من آثارها أنها تنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن كما قال (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فان لم يكن لها هذا الأثر فى النفوس كانت صوراً من الحركات والعبارات خالية من روح العبادة وسرها فاقدة جلالها وكمالها ، وقد توعد الله فاعليها بالويل والثبور فقال (ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فهم وإن سماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولبها وهو توجه القلب إلى الله والإخبات المشعر بعظمته ، وقد جاء فى الحديث : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا . وأنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه .

والاستعانة طلب المعونة والمساعدة على إتمام عمل لا يستطيع المستعين الاستقلال بعمله وحده .

وقد أمرنا الله فى هذه الآية ألا نعبد أحدا سواه ، لأنه المنفرد بالسلطان ، فلا ينبغى أن يشاركه فى العبادة سواه ولا أن يعظم تعظيم المعبود غيره ، كما أمرنا ألا نستعين بمن دونه ، ولا نطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة إلى الثمرة المرجوة إلا منه ، فيما وراء الأسباب التى يمكننا كسبها وتحصيلها .

بيان هذا أن الأعمال يتوقف نجاحها على أسباب ربطتها الحكمة الإلهية بمسبباتها وجعلتها موصلة إليها ، وانتفاء موانع من شأنها أن تحول دونها ، وقد أوتى الإنسان بما فطره الله عليه من العلم والمعرفة كسب بعض الأسباب ودفع بعض الموانع بقدر

استعداده الذى أوتيه ، وفى هذا القدر أمرنا أن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً كما قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) فنحضر الدواء لشفاء المرضى ونجلب السلاح والكراع ونكثر الجند لغلب العدو ونضع فى الأرض السماد ونرويها ونقتلع منها الحشائش الضارة للخصب وتكثير الغلة .

وفيما وراء ذلك مما حجب عنا من الأسباب يجب أن نفوض أمره إلى الله تعالى فنستعين به وحده ونفزع إليه فى شفاء مريضنا ونصرنا على عدونا ورفع الجوائح السماوية والأرضية عن مزارعنا ، إذ لا يقدر على دفع ذلك سواه ، وهو قد وعدنا إذا نحن لجأنا إليه بإجابة سؤلنا كما قال (ادعونى أستجب لكم) وأرشد إلى أنه قريب منا يسمع دعاءنا كما قال (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

فمن يستعن بقبر ناسك ، أو ضريح عابد لقضاء حاجة له ، أو تيسير أمر تعسر عليه ، أو شفاء مريض أو هلاك عدو فقد ضل سواء السبيل وأعرض عما شرعه الله وارتكب ضربا من ضروب الوثنية التى كانت فاشية قبل الإسلام وبعده ولا تزال إلى الآن كذلك ، وقد نهى عن مثلها الشارع الحكيم ، إذ حصر طلب المعونة فيه دون سواه ، وجعلها مقصد كل مخبت أوّاه .

وفى ذكر الاستعانة بالله إرشاد للإنسان إلى أنه يجب عليه أن يطلب المعونة منه على عمل له فيه كسب ، فمن ترك الكسب فقد جانب الفطرة ونبذ هدى الشريعة وأصبح مذموما مدحورا ، لا متوكلا محمودا ، كذلك فيها إيماء إلى أن الإنسان مهما أوتى من حصافة الرأى وحسن التدبير وتقليب الأمور على وجوهها — لا يستغنى عن العون الإلهى واللطف الخفى .

والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله ، وهى من كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، وبها يكون المرء مع الله عبداً خاضعا مخبتا ، ومع الناس حرا كريما لا سلطان لأحد عليه ، لا حى ولا ميت ، وفى هذا فك للارادة من أسر الرؤساء والدجالين ، وإطلاق العزائم من قيود الأفاكين الكاذبين .

(اهدنا الصراط المستقيم) الهداية هى الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، والصراط هو الطريق ، والمستقيم ضد المعوج ، وهو ما فيه انحراف عن الغاية التى يجب على سالكها أن ينتهى إليها .

وهداية الله للانسان على ضروب :

(١) هداية الإلهام ، وتكون للطفل منذ ولادته ، فهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء ويصرخ طالبا له .

(٢) هداية الحواس ، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان الأعجم ، بل هما فى الحيوان أتمّ منهما فى الإنسان ، إذ إلهامه وحواسه يكملان بعد ولادته بقليل ، ويحصلان فى الإنسان تدريجا .

(٣) هداية العقل ، وهى هداية أعلى من هداية الحس والإلهام ، فالانسان قد خلق ليعيش مجتمعا مع غيره ، وحواسه و إلهامه لا يكفيان لهذه الحياة ، فلا بد له من العقل الذى يصحح له أغلاط الحواس ، ألا ترى الصفراوى يذوق الحلو مرّا ، والرائى يبصر العود المستقيم فى الماء معوجا .

(٤) هداية الأديان والشرائع ، وهى هداية لابد منها لمن استرقّت الأهواء عقله ، وسخر نفسه للذاته وشهواته ، وسلك مسالك الشرور والآثام ، وعدا على بنى جنسه ، وحدث بينه وبينهم التجاذب والتدافع — فبها يحصل الرشاد إذا غلبت الأهواء العقول، وتتبين للناس الحدود والشرائع ، ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها — إلى أن فى غرائز الإنسان الشعور بسلطان غيبى متسلط على الأكوان ، إليه ينسب كل ما لا يعرف له سببا ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، وهو بعقله لا يدرك ما يجب لصاحب هذا السلطان ، ولا يصل فكره إلى ما فيه سعادته فى هذه الحياة فاحتاج إلى هداية الدين التى تفضل الله بها عليه ووهبه إياها .

و إلى تلك الهدايات أشار الكتاب الكريم فى آيات كثيرات كقوله (وهديناه النجدين) أى طريق الخير والشر والسعادة والشقاء . وقوله (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا

العمى على الهدى) أى أرشدناهم إلى طريق الخير والشر فاختاروا الثانى الذى عبر عنه بالعمى .

وهناك نوع آخر من الهداية وهو المعونة والتوفيق للسير فى طريق الخير ، وهو الذى أمرنا الله بطلبه فى قوله : اهدنا الصراط المستقيم ؛ إذ المراد — دلنا دلالة تصحبها من لدنك معونة غيبية تحفظنا بها من الوقوع فى الخطأ والضلال .

وهذه الهداية خاصة به سبحانه لم يمنحها أحدا من خلقه ، ومن ثم نفاها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء) وقوله (ليس عليك هداهم ولـكن الله يهدى من يشاء) وأثبتها لنفسه فى قوله (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

أما الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحق ، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة والفوز والفلاح ، فهى مما تفضل الله به ومنحه خلقه ، ومن ثم أثبتها للنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم).

هذا ـ والصراط المستقيم هو جملة ما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتشريع دينى كالعلم الصحيح بالله والنبوة وأحوال الـكون وأحوال الاجتماع ـ وقد سمى هذا صراطا مستقيما تشبيها له بالطريق الحسى ، إذ كل منهما موصل إلى غاية ، فهذا سير معنوى يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان ، وذاك سير حسىّ يصل به إلى غاية أخرى .

وقد أرشدنا الله إلى سؤال الهداية منه ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد فى معرفة أحكام الشريعة ونكلف أنفسنا الجرى على سننها ، لنحصل على خيرى الدنيا والآخرة .

(صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) الذين أنعم عليهم هم النبيون والصديقون والصالحون من الأمم السالفة ، وقد أجملهم هنا وفصلهم فى مواضع عدة من الـكتاب الـكريم بذكر قصصهم للاعتبار بالنظر فى أحوالهم ، فيحملنا ذلك على

حسن الأسوة فيما تكون به السعادة ، واجتناب ما يكون طريقا إلى الشقاء والدمار .

وقد أمرنا باتباع صراط من تقدّمنا ، لأن دين الله واحد فى جميع الأزمان ، فهو إيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وتخلّق بفاضل الأخلاق وعمل الخير وترك الشر ، وما عدا ذلك فهو فروع وأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى آخر الآية .

والمغضوب عليهم هم الذين بلغهم الدين الحق الذى شرعه الله لعباده فرفضوه ونبذوه وراءهم ظهريا ، وانصرفوا عن النظر فى الأدلة تقليدا لما ورثوه عن الآباء والأجداد ـ وهؤلاء عاقبتهم النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار .

والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيه الحق ، فهم تائهون فى عماية لا يهتدون معها إلى مطلوب ، تعترضهم الشبهات التى تلبس الحق بالباطل والصواب بالخطأ إن لم يضلوا فى شئون الدنيا ضلوا فى شئون الحياة الأخرى ، فمن حُرم الدين ظهر أثر الاضطراب فى أحواله المعيشية وحلت به الرزايا،وهم غير مكلفين بشريعة ولا يعذبون فى الآخرة لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

وهذا رأى جمهرة العلماء ، وترى فئة منهم أن العقل وحده كاف فى التكليف ، فمتى أوتيه الإنسان وجب عليه النظر فى ملكوت السموات والأرض والتدبر والتفكر فى خالق الكون ، وما يجب له من عبادة وإجلال ، بقدر ما يهديه عقله و يصل إليه اجتهاده ، و بذلك ينجو من عذاب النار يوم القيامة ، فإن لم يفعل ذلك كان من الهالكين .

(آمين) اسم بمعنى استجب ، وفيه لغتان : المد كما قال شاعرهم :

يا رب لا تسلبنّى حبها أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

والقصر كما قال الآخر : أمينَ فزاد الله ما بيننا بعدا

وروى فى الأثر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لقننى جبريل آمين عند

فراغى من قراءة الفاتحة ، وقال إنه كالختم على الكتاب ، وأوضح ذلك علىّ كرم الله وجهه فقال : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده - يريد أنه كما يمنع الخاتم الاطلاع على المختوم والتصرف فيه ، يمنع آمين الخيبة عن دعاء العبد .

وهذا اللفظ ليس من القرآن إذ لم يثبت فى المصاحف ، ولا يقوله الإمام فى الصلاة ، لأنه الداعى كما قال الحسن البصرى ، والمشهور عن أبى حنيفة أنه يقوله ويخفيه وفاقا لرواية أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعند الشافعية يجهر به ، كما رواه وائل بن حجر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان إذا قرأ ولا الضالين ، قال : آمين ورفع صوته .

ويرى بعض علماء الآثار المصرية فى العصر الحاضر أن كلة (آمين) معناها الله ، فكأنها ذكرت فى آخر الفاتحة للختم باسمه تعالى إشارة إلى أن المرجع كله إليه ، ويعقدون موازنة بين (مينو) و (آمون) و (آمين) .

ويرى الثقات من علماء اللغات السامية رأيهم ، ويقولون : إنها ذكرت آخر الفاتحة للترنم بها بعدقراءة السورة التى تضمنت الإشارة إلى أغراض الكتاب الكريم، ويؤيدون رأيهم بأن المزامير ختمت بكلمة (سلاه) للترنم بها على هذا النحو - ويكون المعنى العام - إنا نتوجه إليك يا إلهنا فإليك المرجع والمصير .

سورة البقرة

مدنية إلا آية ، إحدى وثمانين ومائتين فقد نزلت بمنى فى حجة الوداع ، وقيل هى آخر القرآن نزولا ، وغالب السورة نزل أول الهجرة ، وهى أطول سور القرآن ، كما أن أقصرها سورة الكوثر ، وأطول آية فى القرآن هى آية الدَّين (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) الخ وأقصرها قوله والضحى . وقوله والفجر .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)

الإيضاح

(الم) هى وأمثالها من الحروف المقطعة نحو (المص والمر) حروف للتنبيه كألا ويا ونحوهما مما وضع لإيقاظ السامع إلى مايلقى بعدها ، فهنا جاءت للفت نظر المخاطب إلى وصف القرآن الكريم والإشارة إلى إعجازه وإقامة الحجة على أهل الكتاب إلى نحو ذلك مما جاء فى أثناء السورة .

وتقرأ مقطعة بذكر أسمائها ساكنة الأواخر فيقال : ألف . لام . ميم ، كما يقال فى أسماء الأعداد . واحد . اثنان . ثلاثة

(ذلك الكتاب) الكتاب اسم بمعنى المكتوب وهو النقوش والرقوم الدالة على المعانى ، والمراد به الكتاب المعروف المعهود للنبى صلى الله عليه وسلم الذى وعده الله به لتأييد رسالته وكفل به هداية طلاب الحق وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

وفى التعبير به إيماء إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بكتابة شىء سواه .

وعدم كتابة القرآن كله بالفعل حين الإشارة إليه لا يمنع الإشارة ، ألا ترى أن من المستفيض الشائع فى التخاطب أن يقول إنسان لآخر : هل أملل عليك كتابا والكتاب لم يوجد بعد .

(لا ريب فيه) الريب والريبة الشك ، وحقيقته قلق النفس واضطرابها ، سمى به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل منها الطمأنينة ، وقد جاء فى الحديث « دع مايريبك إلى مالا يريبك ، فان الشك ريبة والصدق طمأنينة » .

والمعنى — أن هذا الكتاب لايعتريه ريب فى كونه من عند الله ، ولا فى هدايته وإرشاده ، ولا فى أساوبه وبلاغته ، فلا يستطيع أحد أن يأتى بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة — وإلى هذا أشار بقوله (وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وارتياب كثير من الناس فيه ، إنما نشأ عن جهل بحقيقته ، أوعن عمى بصيرتهم ، أوعن التعنت عنادا واستكبارا واتباعا للهوى أوتقليدا لسواهم .

(هدى للمتقين) الهدى بالنظر إلى المتقين ، هو الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة والتوفيق للعمل بأحكامه ، إذ هم قد اقتبسوا من أنواره وجنوا من ثماره ، وهو لغيرهم هدى ودلالة على الخير ، وإن لم يأخذوا بهديه وينتفعوا بإرشاده .

وكون بعض الناس لم يهتدوا بهديه لا يخرجه عن كونه هدى ، فالشمس شمس وإن لم يرها الأعمى ، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه ذو المِرّة .

والمتقين : واحدهم متق من الاتقاء وهو الحجز بين الشيئين ، ومنه يقال اتقى بترسه أى جعله حاجزاً بين نفسه ومن يقصده ، فكأن المتقى يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه — حاجزا بينه وبين العقاب الإلهى .

والعقاب الذى يتقى ضربان دنيوى وأخروى وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه .

فعقاب الدنيا يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله فى الخليقة ، وعدم مخالفة النظم التى وضعها فى الكون ، فاتقاء الفشل والخذلان فى القتال مثلا يتوقف على معرفة نظم الحرب وفنونها وآلاتها كما يشير إلى ذلك قوله تعالى (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) كما يتوقف على القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده .

وعقاب الآخرة يتقى بالإيمان الخالص والتوحيد والعمل الصالح واجتناب مايضاد

ذلك من الشرك واجتناب المعاصى والآثام التى تضر المرء أو تضر المجتمع .

والمتقون فى هذه الآية هم الذين سمت نفوسهم ، فأصابت ضربا من الهداية واستعدادا لتلقى نور الحق والسعى فى مرضاة الله بقدر ما يصل إليه إدراكهم ويبلغ إليه اجتهادهم .

وقد كان من هؤلاء ناس فى الجاهلية ، كرهوا عبادة الأصنام ، وأدركوا أن خالق الكون لا يرضى بعبادتها ، كذلك كان من أهل الكتاب ناس يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

الإيضاح

(الذين يؤمنون بالغيب) الإيمان تصديق جازم يقترن بإذعان النفس واستسلامها ، وأمارته العمل بما يقتضيه الإيمان ، وهو يختلف باختلاف مراتب المؤمنين فى اليقين .

والغيب ما غاب عنهم علمه كذات الله وملائكته والدار الآخرة وما فيها من البعث والنشور والحساب .

والإيمان بالغيب هو اعتقاد بموجود وراء المحسات متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم ، ومن يعتقد بهذا يسهل عليه التصديق بوجود خالق للسموات والأرض منزه عن المادة وتوابعها ، وإذا وصف له الرسول العوالم التى استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة ، أو وصف له اليوم الآخر لم يصعب عليه التصديق به بعد أن يستيقن صدق النبى صلى الله عليه وسلم .

أما من لا يعرف إلا ما يدركه الحس فانه يصعب إقناعه ، وقلما تجد الدعوة إلى الحق من نفسه سبيلا .

(ويقيمون الصلاة) الصلاة فى اللغة الدعاء كما قال تعالى (وصلّ عليهم) ودعاء المعبود بالقول أو بالفعل أو بكليهما يشعر العابد بالحاجة إليه استدرارا للنعمة أو دفعاً للنقمة .

والصلاة على النحو الذى شرعه الإسلام ، من أفضل ما يعبر عن الشعور بعظمة المعبود وشديد الحاجة إليه لو أقيمت على وجهها . أما إذا خلت من الخشوع والخضوع فإنها تكون صلاة لا روح فيها وإن كانت قد وجدت صورتها وهى الكيفيات المخصوصة ؛ ولا يقال المصلى حينئذ إنه امتثل أمر ربه فأقام الصلاة ، لأن الإقامة مأخوذة من أقام العود إذا سواه وأزال اعوجاجه ، فلابد فيها من حضور القلب فى جميع أجزائها واستشعار الخشية ومراقبة الخالق كأنك تنظر إليه كما ورد فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فإنه يراك » .

ولما للصلاة من خطر فى تهذيب النفوس والسمو بها إلى الملكوت الأعلى أبان الله تعالى عظيم آثارها بقوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وجعلها النبى صلى الله عليه وسلم عماد الدين فقال « الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام » .

وقد أمر الله بإقامتها بقوله (وأقيموا الصلاة) وبالمحافظة عليها وإدامتها بقوله : (الذين هم على صلاتهم دائمون) وبأدائها فى أوقاتها بقوله (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتاً) وبأدائها فى جماعة بقوله (واركعوا مع الراكعين) وبالخشوع فيها بقوله (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) .

(ومما رزقناهم ينفقون) الرزق فى اللغة العطاء ، ثم شاع استعماله فيما ينتفع به الحيوان ، وجمهرة المسلمين على أن كل ما ينتفع به حلالا كان أو حراما فهو رزق ، وخصه جماعة بالحلال فقط .

والإنفاق والإنفاد أخوان ، خلا أن فى الثانى معنى الإذهاب التام دون الأول ، والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذوى القربى ، وصدقة التطوع .

وفى قوله : مما رزقناهم إيماء إلى أن النفقة المشروعة تكون بعض ما يملك

الإنسان ، لا كل ما يملك ، و إلى تعليم الإنسان مبادئ الاقتصاد وحب ادخار المال

و إن من يجد فى نفسه ميلا إلى بذل أحب الأشياء إليه وهو ماله ابتغاء رضوان الله ، وقياما بشكره على أنعمه ، رحمة لأهل البؤس والعوز — كان من المتقين المستعدين لهدى القرآن ، وكثير من الناس يصلون و يصومون ، ولكن إذا عرض لهم ما يدعو إلى إنفاق شيء من المال فى سبيل الله ، كأن تدعو الحاجة إلى إنفاقه فى مصلحة من مصالح المسلمين أو منفعة عامة لا تقوم إلا بالبذل — أعرضوا ونأوا ولم تطاوعهم أنفسهم على بذل شيء منه .

و إنما كان القرآن هدى للمتقين الذين هذه أوصافهم ، لأن الإيمان بالله والإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى فيها كل عامل جزاء عمله - يهيئ النفوس لقبول هديه والاقتباس من أنواره .

و بين ذلك بعضهم بقوله لأن فى الإيمان النجاة ، وفى الصلاة المناجاة ، وفى الإنفاق زيادة الدرجات ، و بعضهم بقوله لأن فى الإيمان البشارة ، وفى الصلاة الكفارة ، وفى الانفاق الطهارة .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) .

الإيضاح

(والذين يؤمنون) روى ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالمؤمنين هنا من يؤمنون بالنبى والقرآن من أهل الكتاب ، و بالمؤمنين فيما قبلها من يؤمنون من مشركى العرب .

(بما أنزل إليك) هو القرآن الذى يتلى ، والوحى الذى لا يتلى ، وهو ما بينه النبى صلى الله عليه وسلم من أعداد الركعات فى الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وحدود

الجنايات ، قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وقال (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى)

ولابد من معرفة ذلك تفصيلا فلا يسع المؤمن جهل ما علم من الدين بالضرورة .

والانزال هنا بمعنى الوحى ، وسمى إنزالا لما فى جانب الألوهية من علو الخالق على المخلوق ، أو لإنزال جبريل له على النبى صلى الله عليه وسلم لتبليغه للخلق كما قال (نزل به الروح الأمين) .

(وما أنزل من قبلك) هو التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة ، فيؤمنون بها إيمانا إجماليا لا تفصيليا .

(وبالآخرة هم يوقنون) الدار الآخرة هى دار الجزاء على الأعمال — والإيمان بها يتضمن الإيمان بكل ما ورد فيها بالنصوص المتواترة كالحساب والميزان والصراط والجنة والنار .

واليقين هو التصديق الجازم الذى لا شبهة فيه ولا تردد ، ويعرف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره فى الأعمال ، فمن يشهد الزور أو يشرب الخمر أو يأكل حقوق الناس يكن إيمانه بهما خيالا يلوح فى الذهن لا إيمانا يقوم على اليقين ، اذ لم تظهر آثاره فى الجوارح واللسان ، وهو لا يكون إيمانا حقا الا اذا كان مالكا لزمام النفس مصرفا لها فى أعمالها .

والإيمان على الوجه الصحيح يحصل من أحد طريقين :

(١) البحث والتأمل فيما يحتاج الى ذلك كالعلم بوجود الله ورسالة الرسل .

(٢) خبر الرسول بعد أن تقوم الدلائل على صدقه فيما يبلغ عن ربه ، أو خبر من سمع منه بطريق لا تحتمل ريبا ولا شكا وهى طريق التواتر ، كالعلم بأخبار الآخرة وأحوالها ، والعالم العلوى وأوصافه ، وعلينا أن نقف عند ذلك فلا نزيد فيه شيئا ولا نخلطه بغيره مما جاء عن طريق أهل الكتاب أو عن بعض السلف

بدون تمحيص ولا تثبت من صحته ، وقد دوّنه المفسرون فى كتبهم وجعلوه من صلب الدين ، وهو ليس منه فى شىء .

أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

الإيضاح

الفلح الشق والقطع ، ومنه سمى الزارع فلاحاً لأنه يشق الأرض ، والمفلح الفائز بالبغية بعد سعي فى الحصول عليها واجتهاد فى إدراكها ، كأنه انفتحت له وجوه النظر ولم تستغلق عليه .

والمشار إليه بأولئك فى الموضعين واحد وهم المؤمنون من غير أهل الكتاب والمؤمنون منهم ، وكرر الإشارة للدلالة على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من هاتين الفضيلتين الهدى والفلاح ، وأن كلا منهما كاف فى تميزهم به عن سواهم ، فكيف بهما إذا اجتمعتا .

والتعبير بقوله (على هدى) يفيد لغة التمكن من الهدى وكمال الرسوخ فيه ، كما يتمكن الراكب على الدابة ويستقر عليها ، وقد جاء فى كلامهم : ركب هواه ، وجعل الغواية مركبا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال المتقين الذين يؤمنون بالغيب وبما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، وبين ما آل إليه أمرهم من الهداية والفلاح

أعقب هذا بشرح حال طائفة ثانية وهم الكفرة الفجرة ، وأبان أنه قد بلغ من أمرهم فى الغواية والضلال ألا يجدى فيهم الإنذار والتبشير وألا تؤثر فيهم العظة والتذكير ، فهم عن الصراط السوى ناكبون ، وعن الحق معرضون ، فالإنذار وعدمه سيان ، فماذا ينفع النور مهما سطع ، والضوء مهما ارتفع ، مع من أغمض عينيه حتى لا يراه بغضا له ، وعداوة لمن دعا إليه ، لأن الجهل أفسد وجدانه ، فأصبح لا يميز بين نور وظلمة ، ولا بين نافع وضار .

وقد جرت سنة الله فى مثل هؤلاء الذين مرنوا على الكفر أن يختم على قلوبهم فلا يبقى فيها استعداد لغير الكفر ، ويختم على سمعهم فلا يسمعون إلا أصواتا لا ينفذ منها إلى القلب شىء ينتفع به ، ويجعل على أبصارهم غشاوة ، إذ هم لما لم ينظروا إلى مافى الكون من آيات وعبر ، ولم يبصروا ما به يتقون الخطر ، فكأنهم لا يبصرون شيئاً وكأنه قد ضرب على أبصارهم بغشاوة .

وقد حكم الله عليهم بالعذاب الأليم فى العقبى ، وفقد العز والسلطان والخزى فى الدنيا كما قال (لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) .

الإيضاح

(إن الذين كفروا) الكفر لغة ستر الشىء وتغطيته ، وقد وصف به الليل كقوله * فى ليلة كفر النجومَ غمامُها *

والزراع كقوله تعالى (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) من قِبَل أنهم يغطون الحب بالتراب ، ثم استعمل فى كفر النعم بعدم شكرها ، وفى الكفر بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله .

والمراد بالذين كفروا هنا من علم الله أن الكفر قد رسخ فى قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدين للإيمان ، بجحودهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وبما جاء به بعد أن

بلغتهم رسالته بلاغا صحيحاً وعرضت عليهم الدلائل على صحتها للنظر والبحث فأعرضوا عنها عناداً واستهزاء .

وسبب كفرهم :

(١) إما عناد للحق بعد معرفته ؛ وقد كان من هذا الصنف جماعة من المشركين واليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأحبار اليهود .

(٢) و إما إعراض عن معرفته واستكبار عن النظر فيه ، والمعرضون عن الحق يوجدون فى كل زمان ومكان ، وهؤلاء إذا طاف بهم طائف الحق لووا رءوسهم واستكبروا وهم معرضون ، وفيهم يقول تبارك وتعالى (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)

(سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ؟) سواء اسم بمعنى مستو كما قال تعالى (إلى كلمة سواء بيننا و بينكم) والإنذار إخبار بشئ مع التخويف بما يترتب على فعله إن كان مذموما أو تركه إن كان محموداً ، ويراد به هنا التخويف من عذاب الله وعقابه على فعل المعاصى .

(لا يؤمنون) جملة موضحة لتساوى الإنذار وعدمه فى حقهم لافى حقه صلى الله عليه وسلم ولا فى حق الدعاة إلى دينه ، إذ هم يدعون كل كافر إلى الدين الحق ، لا فرق بين المستعد للايمان وغير المستعد .

(ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) الختم والطبع والرين بمعنى واحد ، وهوتغطية الشيء مع إبعاد ما من شأنه أن يدخله و يمسه ، والمراد بالقلوب العقول ، و بالسمع الأسماع ، وبالأبصار العيون التى تدرك المبصرات من أشكال وألوان ، والغشاوة الغطاء .

المعنى — ضرب الله مثلا لحال قلوب أولئك القوم وقد تمكن الكفر فيها حتى امتنع أن يصل إليها شيء من الأمور الدينية النافعة لها فى معاشها ومعادها وحيل بينها

و بينه — بحال بيوت معدة لحلول ما يأتى إليها مما فيه مصالح مهمة للناس لكنه منع ذلك بالختم عليها وحيل بينها و بين ماأعدت لأجله — فقد حدث فى كل منهما امتناع دخول شىء بسبب مانع قوى ؛ وكذلك حدث مثل هذا فى الأسماع فلا تسمع آيات الله المنزلة سماع تأمل وتدبر ، وجعل على الأبصار غشاوة فلا تدرك آيات الله المبصرة فى الآفاق والأنفس الدالة على الإيمان ؛ ومن ثم لا يرجى تغيير حالهم ولا أن يدخل الإيمان فى قلوبهم .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه أولا من أخلص دينه لله ووافق سره علنه وفعله قوله ، ثم ثنى بذكر من محضوا الكفر ظاهراً وباطناً . وهنا ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة ، لأنهم ضموا إلى الكفر استهزاء وخداعا وتمويهاً وتدليساً ، وفيهم نزل (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ونزل (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) وقد وصف الله حال الذين كفروا فى آيتين وحال المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم واستجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم ودعاهم صما بكما عميا وضرب لهم شنيع الأمثال .

فنعى عليهم خبثهم فى قوله : ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر : ، ومكرهم فى قوله : يخادعون الله والذين آمنوا : ، وفضحهم فى قوله : وما هم بمؤمنين ، وفى قوله : وما يخدعون إلا أنفسهم ، وفى قوله : فى قلوبهم مرض ، واستجهلهم فى قوله :

وما يشعرون ، وفى قوله : ولـكن لا يشعرون ، وفى قوله : ولـكن لا يعلمون ، وتهكم بفعلهم فى قوله ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ودعاهم صما بكما عمياً فى قوله : صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، وضرب لهم شنيع الأمثال فى قوله : مثلهم كمثل الذى استوقد نارا الخ وفى قوله : أو كصيب من السماء الخ .

الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) أصل ناس أناس ويشهد له إنسان وإنسى ، وسموا بذلك لظهورهم وتعلق الإيناس بهـــم ، كما سمى الجن جنا لاجتنانهم واختفائهم .

من يقول الخ هم أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا فى عصر التنزيل كعبدالله ابن أبىّ بن سلول وأصحابه وأكثرهم من اليهود ، ولهم نظراء فى كل عصر وقطر .

واليوم الآخر — هو من وقت الحشر إلى مالا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وخصوا بالذكر الإيمـان بهما إشارة إلى أنهم أحاطوا بجانبى الإيمـان أوله وآخره ، وهم لم يكونوا كذلك ، إذ كانوا مشركين بالله لأنهم يقولون عزير ابن الله ، وجاحدين باليوم الآخر إذ قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة وقد حكى الله عبارتهم ليبين كمال خبثهم لأن ماقالوه لو صدر عنهم لاعلى وجه الخداع والنفاق مع ما هم عليه لم يكن ذلك إيمانًا لاتخاذهم الولد واعتقادهم أن الجنة لايدخلها غيرهم ، فمـا بالك بهم إذا قالوه تمويهاً على المؤمنين واستهزاء بهم .

(وما هم بمؤمنين) أى وماهم بداخلين فى عداد المؤمنـين الصادقين الذين يشعرون بعظيم سلطان الله ، ويعلمون أنه مطلع على سرهم ونجواهم ، إذ هم كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ، ظنا منهم أن ذلك يرضى ربهم ، ثم هم بعد ذلك منغمسون فى الشرور والمآثم من كذب وغش وخيانة وطمع إلى نحو ذلك مما حكاه الـكتاب الـكريم عنهم ونقله الرواة .

(يخادعون الله والذين آمنوا) الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه لتحول بينه و بين ما يريد ، وأصله من قولهم : خدع الضبّ إذا توارى فى جحره ، وضب خادع إذا أوهم حارسه الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر .

والخدع هنا من جانب المنافقين لله وللمؤمنين ، والتعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة فى حصول الفعل وهو الخدع ، أو للدلالة على حصوله مرة بعد أخرى ، كما يقال مارست الشىء وزاولته ، إذ هم كانوا مداومين على الخدع ، إذ أعمالهم الظاهرة لا تصدقها بواطنهم ، وهذا لا يكون إلا من مخادع لا من تائب خاشع .

وخداعهم للمؤمنين بإظهار الإيمان و إخفاء الكفر للاطلاع على أسرارهم و إذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود ، ودفع الأذى عن أنفسهم .

(وما يخدعون إلا أنفسهم) إذ ضرر عملهم لاحق بهم ، فهم يغرّون أنفسهم بالأكاذيب و يلقونها فى مهاوى الهلاك والردى .

(وما يشعرون) يقال شعر به يشعر شعورا : علم به وفطن ، والفطنة إنما تتعلق بخفايا الأمور ، فالشعور لا يكون إلا فى إدراك ما دق وخفى من شئ حسى أو عقلى .

وقد نفى الشعور عنهم فى مخادعتهم لله ، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم على أقوالهم ولم يراقبوه فى أفعالهم ، ولم يفكروا فيما يرضيه ، بل جروا فى ريائهم على ما ألفوا وتعودوا فهم يعملون عمل المخادعين وما يشعرون ، فاذا عرض لهم زاجر من الدين يحول بينهم و بين ما يشتهون — وجدوا لهم من المعاذير ما يسهل أمره ، إما بأمل فى المغفرة ، أو تحريف فى أوامر الكتاب ، لما رسخ فى نفوسهم من عقائد الزيغ التى يسمونها إيمانا ، وهم فى الحقيقة مخدوعون ، وعن الصراط السوى ناكبون .

والمشاهد أن الإنسان إذا همّ بعمل وناجى نفسه ، وجد كأن فى قلبه خصمين مختصمين ، أحدهما يميل به إلى اللذة و يسير به فى طريق الضلال والغواية ، وثانيهما يأمره بالسير فى الطريق القويم و ينهاه عن اتباع النفس والهوى ، ولقد جاء فى كلامهم عن المتردد « فلان يشاور نفسيه » .

ولا يترجح عنده جانب الشر إلا إذا خدع نفسه وصرفها عن الحق ، وزين لها اتباع الباطل ، وإنما يكون ذلك بعد مشاورة ومذاكرة تجول فى الخاطر وتهجس فى النفس ربما لا يلتفت إليها الإنسان ولا يشعر بما يجول بين جنبيه .

(فى قلوبهم مرض) القلوب هنا العقول ، وهو تعبير معروف عند العرب ، كأنهم لاحظوا أن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذى هو السائق إلى الأعمال كاضطرابه حين الخوف أو اشتداد الفرح .

ومرضها ما يطرأ عليها مما يضعف إدراكها وتعقلها لفهم الدين ومعرفة أسراره وحكمه ، وفقدان هذا الإدراك هو الذى عبر عنه القرآن بقوله : (لهم قلوب لا يفقهون بها) .

ومن أسباب ذلك الجهل والنفاق والشك والارتياب والحسد والضغينة إلى غير ذلك مما يفسد الاعتقاد والأخلاق ويجعل أحكام العقل فى اضطراب .

وقد وجد هذا المرض عند هؤلاء المنافقين حين كانوا فى فترة من الرسل فلم يكن لهم حظ من قراءة كتب الدين إلا تلاوتها ولا من أعماله إلا إقامة صورها دون أن تنفذ أسرارها إلى القلوب ، فتهذب النفوس وتسمو بها إلى فضائل الأخلاق والتفقه فى الدين .

(فزادهم الله مرضاً) بعد أن جاء النذير البشير ومعه البرهان القاطع والنور الساطع وأبوا أن يتبعوه وزاد تمسكهم بما كانوا عليه ، فكان ذلك النور عمى فى أعينهم ، ومرضاً فى قلوبهم وتحرقت قلوبهم حسرة على ما فاتهم من الرياسة ، وحسدا على ما يرونه من ثبات أمر الرسول وعلو شأنه يوما بعد يوم .

(ولهم عذاب أليم) أليم من ألِم يألم فهو أليم بمعنى مؤلم (بفتح اللام) إذ يصل ألمه إلى القلوب ، وصف به العذاب نفسه لبيان أن الألم بلغ الغاية حتى سرى من المعذّب (بفتح اللام) إلى العذاب المتعلق به .

(بما كانوا يكذبون) أى بكذبهم فى دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر ، فهم

لم يصدقوا بأعمالهم ما يزعمونه من حالهم ، وقد جعل العذاب جزاء الكذب دون سائر موجباته الأخرى كالكفر وغيره من أعمال السوء ، للتحذير منه و بيان فظاعته وعظم جرمه ، وللإشعار بأن الكفر من محتوياته ، و إليه ينتهى فى حدوده وغاياته ، ومن ثم حذر منه القرآن أتم التحذير ، وما فشا فى أمة إلا كثرت فيها الجرائم ، وشاعت فيها الرذائل ، فهو مصدر كل رذيلة، ومنشأ كل كبيرة ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والكذب فإنه مجانب للايمان .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء ؟ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣) .

المعنى الجملى

عدد الله فى هذه الآيات الثلاث بعض شناعاتهم المترتبة على كفرهم ونفاقهم ، ففصل بعض خبائثهم وجناياتهم وذكر بعض هفواتهم ثم أظهر فسادها وأبان بطلانها ، فحكى ما أسداه المؤمنون إليهم من النصائح حين طلبوا منهم ترك الرذائل التى تؤدى إلى الفتنة والفساد والتمسك بأهداب الفضائل واتباع ذوى الأحلام الراجحة والعقول الناضجة ، ثم ما أجابوا به مما دل على عظيم جهلهم وتماديهم فى سفههم وغفلتهم .

الإيضاح

(وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض) الفساد خروج الشىء عن حد الاعتدال ، والصلاح ضده ، والفساد فى الأرض هيج الحروب والفتن الذى يؤدى إلى اختلال أمر المعاش والمعاد ، والمنهى عنه هنا الأسباب المؤدية إلى الفساد من إفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار وإغرائهم بالمؤمنين ، وتنفيرهم من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم

والأخذ بما جاء به من الإصلاح ، إلى نحو أولئك من فنون الشر وصنوف الفتن ، كما يقول إنسان لآخر : لا تقتل نفسك بيدك ، ولا تلق بيديك إلى التهلكة ، إذا أقدم على ما هذه عاقبته .

(قالوا إنما نحن مصلحون) أى لا شأن لنا إلا الإصلاح ، فنحن بعيدون عن شوائب الإفساد باتباعنا رؤساءنا الذين استنبطوا تعاليمهم من الأنبياء ، فكيف ندع ما تلقيناه منهم ونعتنق دينا جديداً لا عهد لنا به من قبل ؟

وهكذا شأن المفسدين فى كل زمان يدّعون فى إفسادهم أنه الإصلاح بعينه، فإن كانوا على بينة من إفسادهم وضلالهم فهم يدّعون ذلك ليبرئوا أنفسهم من وصمة الإفساد بالتمويه والخداع ، وإن كانوا مسوقين إليه تقليدا للرؤساء ، فهم يدعونه عن اعتقاد ، وإن كان السير على منهاجه مفسداً للأمة فى الحقيقة والواقع ، إذ هم عطلوا وسائل البحث التى تميز الإصلاح من الإفساد ، فهم بصدهم عن سبيل الإسلام الداعى إلى الوحدة والالتئام ، يدعون إلى الفرقة والانفصام ، وأى إفساد فى الأرض أعظم من التنفير من اتباع الحق والسير على منهاج الباطل ومؤازرة أهله .

(ألا إنهم هم المفسدون) أى هم وحدهم هم المفسدون دون من أومئوا إليهم ، لأن لهم سلفاً صالحاً تركوا الاقتداء بهم ، وفى هذا الأسلوب مبالغة فى الرد عليهم ، ودلالة على السخط العظيم .

(ولكن لا يشعرون) بهذا الإفساد لأنه أصبح غريزة فى طباعهم بما تمكن فيها من الشبه بتقليدهم أحبارهم الذين أشربت قلوبهم تعظيمهم والثقة بآرائهم .

(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) الذين اتبعوا قضية العقل وسلكوا سبيل الرشاد ، وكان للإيمان سلطان على نفوسهم ، وعليه بنوا تصاريف أعمالهم كعبد الله ابن سلام وأشباهه من أحبارهم .

(قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ؟) السفه خفة فى العقل وفساد فى الرأى ، ومنه قيل ثوب سفيه أى ردىء النسج ، وعنوا بالسفهاء أتباع النبى صلى الله عليه وسلم .

أما مهاجروهم فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا أوطانهم وتركوا ديارهم ليتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ويسيروا على هديه . وأما الأنصار فلأنهم شاركوا المهاجرين فى ديارهم وأموالهم .

ولا يستبعد ممن انهمك فى السفاهة وتمادى فى الغواية ، وممن زين له سوء عمله فرآه حسناً وظن الضلال هدى أن يسمى الهدى سفهاً وضلالا .

(ألا إنهم هم السفهاء) وحدهم دون من عرّضوا بهم ونسبوهم إلى السفه ، إذ هم لهم سلف صالح تركوا الاقتداء بهم واكتفوا بانتظار شفاعتهم وإن لم يجروا على هديهم وسنتهم ، بخلاف أولئك الذين لا سلف لهم إلا عابدو أصنام وقد هداهم الله وصارت قلوبهم مطمئنة بالإيمان .

(ولكن لا يعلمون) ما الإيمان وما حقيقته ؟ حتى يعلموا أن المؤمنين سفهاء أو عقلاء .

وقد ختمت هذه الآية بلا يعلمون ، وسابقتها بلا يشعرون ، لأن الإيمان لا يتم إلا بالعلم اليقينى ، والفائدةُ المرجوّة منه وهى السعادة فى المعاش والمعاد لا يدركها إلا من يعلم حقيقته ويدرك كنهه ، فهم قد أخطئوا فى إدراك مصلحتهم ومصلحة غيرهم .

أما نفاقهم وإفسادهم فى الأرض فقد بلغ من الوضوح مبلغ الأمور المحسوسة ، التى تصل إلى الحواس والمشاعر ، ولكن لا حس لهم حتى يدركوه .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) .

المفردات

اللقاء المصادفة تقول : لقيته ولاقيته إذا صادفته واستقبلته ، خلوا إما من خلوت بفلان و إلى فلان إذا انفردت به ، و إما من خلا بمعنى مضى ومنه القرون الخالية ، واطلب الأمر وخلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك . والشيطان كل عات متمرد من الإنس والجن كما قال (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا). والاستهزاء السخرية يقال هزأت به واستهزأت كأجبت واستجبت ، وأصل المادة تفيد الخفة يقال ناقة تهزأ به أى تسرع . يمدّهم أى يزيدهم من مد الجيش وأمده إذا زاد عدده وقواه . والطغيان (بضم الطاء وكسرها) مجاوزة الحد فى كل شئ . والعمه ظلمة البصيرة كالعمى فى البصر وأثره الحيرة والاضطراب بحيث لايدرى الإنسان أين يتوجه ، يقال عمِه فهو عمِه وعامِه وجماعة عُمَّه .

المعنى الجملى

وصف الله فى هذه الآيات حال جماعة من المنافقين كانوا فى عصر التنزيل قد بلغ من دعارتهم وتمردهم فى النفاق وفساد الأخلاق أن كانوا يظهرون بوجهين ، و يتكلمون بلسانين ، فاذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون ، و إذا خلوا إلى شياطينهم دعاة الفتنة والإفساد الذين يصدون عن سبيل الحق قالوا لهم إنما نقول ذلك لهم استهزاء بهم ، وقد فضح الله بهتانهم وأوعدهم شديد العقاب على استهزائهم وزادهم حيرة فى أمورهم ، ثم ذكر أنهم قد اختاروا الضلالة على الهدى إذ هم أهملوا العقل فى فهم الكتاب بعد أن تمكنت منهم التقاليد والعادات وتحكمت فيهم البدع فخسروا فى تجارتهم وما كانوا مهتدين فيها ، لأنهم باعوا ماوهبهم الله من النور والهدى بضلالات البدع والأهواء .

الإيضاح

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) أى إذا رأى المنافقون المؤمنين واجتمعوا بهم قالوا كذبا وبهتانا آمنا كإيمانكم وصدقنا كتصديقكم ، وإذا انفردوا بأمثالهم من دعاة الفتنة والإفساد قالوا لهم إنا على عقيدتكم وموافقوكم على دينكم ، وإنما نظهر لهم الإيمان استهزاء بهم لنشاركهم فى الغنائم ونحفظ أموالنا وأولادنا ونساءنا من أيديهم ونطلع على أسرارهم.

(الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) أى الله يجازيهم بالعقاب على استهزائهم (وسمى هذا الجزاء استهزاء للمشاكلة فى اللفظ ، والعرب تسمى الشىء باسم غيره إذا شاركه فى اللفظ كما سموا جزاء السيئة سيئة) ويزيدهم فى عتوهم وكفرهم ويجعلهم حائرين مترددين فى الضلال عقوبة لهم على استهزائهم .

(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى هؤلاء قد رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم ومالوا إلى الضلال واشتروه ولكن لم تكن تجارتهم رابحة ، إذ هم أضاعوا رأس المال وهو ما كان لهم من الفطرة السليمة والاستعداد لإدراك الحقائق ونيل الكمال فأصبحوا خاسرين آيسين من الربح .

وإن من كانت هذه حالهم فلاعلم لهم بطرق التجارة ، فإن التاجر إن فاته الربح فى صفقة فربما تداركه فى أخرى ما دام رأس المال موجودا ، أما وقد فقد رأس المال فلا سبيل إلى الربح بحال .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) .

المفردات

المَثَلْ والمِثْلْ والمثيل كالشَّبه والشِّبه والشبيه وزنا ومعنى ، ثم استعمل فى بيان حال الشيء وصفته التى توضحه وتبين حاله كقوله (مثل الجنة التى وعد المتقون) الخ . وقوله (ولله المثل الأعلى) واستوقد النار طلب وَقودها أى سطوعها وارتفاع لهبها بفعله أو فعل غيره ، ويقال ضاءت النار وأضاءت وأضاءته النار ، أى أظهرته بضوئها . وترك أى صير . والصمم آفة تمنع السماع . والبكم الخرس . والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر .

المعنى الجملى

نهج القرآن الكريم نهج العرب فى أساليبها ، فضرب الأمثال التى تجلى المعانى أتم جلاء وتحدث فى النفوس من الأثر ما لا يقدر قدره ولا يسبر غوره ، لما فيها من إبراز المعقولات الخفية فى معرض المحسوسات الجلية ، وإظهار ما ينكر فى لباس ما يعرف ويشهر ، وعلى هذا السنن ضرب الله مثل المنافقين ، فصور حالهم حينما أسلموا أولا ودخل نور الإيمان فى قلوبهم ، ثم داخلهم الشك فيه فكفروا به إذ لم يدركوا فضائله ولم يفقهوا محاسنه ، وصاروا لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة ، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين ـ بحال جماعة أوقدوا ناراً لينتفعوا بها فى جلب خير أو دفع ضر ، فلما أضاءت ما حولهم من الأشياء والأماكن ، جاءها عارض خفى أو أمر سماوى كمطر شديد أو ريح عاصف جرفها وبددها فأصبحوا فى ظلام دامس لا يتسنى لهم الإبصار بحال .

ثم جعلهم مرة أخرى كالصم البكم العمى الذين فقدوا هذه المشاعر والحواس ، إذ هم حين لم ينتفعوا بآثارها فكأنهم فقدوها ، فما فائدة السمع إلا الإصاخة إلى نصح الناصح وهدى الواعظ ، وما منفعة اللسان إلا الاسترشاد بالقول وطلب الدليل والبرهان لتتجلى المعقولات وتتضح المشكلات ، وما مزية البصر إلا النظر والاعتبار

لزيادة الهدى والاستبصار ، فمن لم يستعملها فى شىء من ذلك فكأنه فقدها ، وأنى لمثله أن يخرج من ضلالة أو يرجع إلى هدى ؟ .

الإيضاح

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) أى مثل المنافقين وحالهم كحال الذين استوقدوا نارا فلما أضاءت ما حولهم من الأمكنة والأشياء أطفأ الله نارهم التى منها استمدوا نورهم بنحو مطر شديد أو ريح عاصف فصيرهم لا يبصرون شيئا ، لأن النور قد زال ولم يبق منه أثر ولا عين .

(صمّ بكم عمي) وصفهم الله بهذه الصفات مع سلامة مشاعرهم ، من قِبَل أنهم فقدوا منفعة السمع فلا يصغون لعظة واعظ ولا إرشاد مرشد ، بل هم لا يفقهون إن سمعوا فكأنهم صم لا يسمعون ، كما فقدوا منفعة الاسترشاد وطلب الحكمة ، فلا يطلبون برهانا على قضية ولا بيانا عن مسألة تخفى عليهم ، فكأنهم بكم لا يتكلمون وفقدوا منافع الإبصار من النظر والاعتبار ، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينزجروا ولا يبصرون ما تتقلب به أحوال الأمم فيعتبروا .

(فهم لا يرجعون) أى فهم لا يعودون من الضلالة إلى الهدى الذى تركوه وأضاعوه ، إذ من فقد حواسه لا يسمع صوتا يهتدى به ولا يصيح لينقذ نفسه ، ولا يرى بارقا من النور يتجه إليه ويقصده ، ولا تزال هذه حاله ، ظلمات بعضها فوق بعض حتى يتردى فى مهاوى الهلاك .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) .

المفردات

الصيب المطر يصوب وينزل من الصوب وهو النزول . والرعد هو الصوت الذى يسمع فى السحاب أحيانا عند تجمعه . والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب غالبا ، وربما لمع فى الأفق حيث لا سحاب ، وأسباب هذه الظواهر اتحاد كهربائية السحاب الموجبة بالسالبة كما تقرر ذلك فى علم الطبيعيات . والصاعقة نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق ، وسببها تفريغ الكهربائية التى فى السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والإحاطة بالشىء الإحداق به من جميع جهاته والخطف الأخذ بسرعة . قاموا أى وقفوا فى أماكنهم منتظرين تغير الحال ليصلوا إلى المقصد أو يلجئوا إلى ملجأ يعصمهم من الخطر .

المعنى الجملى

ضرب الله مثلا آخر يشرح به حال المنافقين ويبين فظاعة أعمالهم وسوء أفعالهم زيادة فى التنكيل بهم وهتكا لأستارهم ، إذ كانوا فتنة للبشر ومرضا فى الأمم ، فجعل حالهم وقد أتتهم تلك الإرشادات الإلهية النازلة من السماء فأصابهم القلق والاضطراب واعترضتهم ظلمات الشبه والتقاليد والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالف آراءهم ، ثم استبان لهم أثناء ذلك قبس من النور يلمع فى أنفسهم حين يدعوهم الداعى وتلوح لهم الآيات البينة والحجج القيمة فيعزمون على اتباع الحق وتسير أفكارهم فى نوره بعض الخطوات ، ولكن لا يلبثون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشبهات فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره بل تعود به إلى الحيرة ـ كحال قوم فى إحدى الفلوات نزل بهم بعد ظلام الليل صيب من السماء فيه رعود قاصفة وبروق لامعة وصواعق متساقطة ، فتولاهم الدهش والرعب ، فهووا بأصابعهم إلى آذانهم كلما قصف هزيم الرعد ليسدوا منافذ السمع لما يحذرونه من الموت الزؤام ويخافونه من نزول الحِمام ، ولكن هل ينجى حذر من قدر « تعددت الأسباب والموت واحد »

بلى إن الله قدير أن يذهب الأسماع والأبصار التى كانت وسيلة الدهش والخوف ، ولكن لحكمة غاب عنا سرها ، ومصلحة لا نعرف كنهها ، لم يشأ ذلك وهو الحكيم الخبير .

الإيضاح

(أو كصيب من السماء) أى كقوم نزل بهم صيب من السماء ، وفى قوله من السماء إيماء إلى أنه شىء لا يمكن دفعه .

(فيه ظلمات ورعد وبرق) أى فيه ظلمة الليل ، وظلمة السحب ، وظلمة الصيب نفسه .

(يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت) أى يجعلون أنامل أصابعهم فى آذانهم كلما حدث قاصف من الرعد ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع خوفا على أنفسهم من الموت ، مع أن سد الآذان ليس من أسباب الوقاية من الصاعقة حتى يدفع الموت عنهم .

(والله محيط بالكافرين) أى والله مطلع على أسرارهم عالم بما فى ضمائرهم قادر على أخذهم أينما كانوا ، فما صنعوا من سد الآذان بالأصابع لا يغنى عنهم من الله شيئا إذ لا يغنى حذر من قدر ، فمن لم يمت بالصاعقة مات بغيرها .

(يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى يكاد البرق يختلس أبصارهم ويستلبها بسرعة من شدة الضوء المفاجئ .

(كلما أضاء لهم مشوا فيه) أى كلما أنار البرق الطريق فى الليلة المظلمة مشوا فى مطّرح نوره خطوات يسيرة .

(وإذا أظلم عليهم قاموا) أى وإذا خفى البرق واستتر وأظلم الطريق وقفوا فى أماكنهم متحيرين منتظرين فرصة أخرى عسى أن يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم من الهلاك .

(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) أى ولو شاء أن يذهب الأسماع والأبصار بصوت الرعد ونور البرق لفعل ، لـكنه لم يشأ لحـكم ومصالح هو بها عليم .

(إن الله على كل شىء قدير) أى أنه ما شاء كان ، إذ لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّـكُمُ الَّذِى خَلَقَـكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكُمْ لَعَلَّـكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِى جَعَلَ لَـكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَـكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أصناف الخلق وبين أن منهم المهتدين ، والـكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهداية ، والمنافقين المذبذبين بين ذلك ـ دعا الناس إلى دين التوحيد الحق وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص حتى كأنهم ينظرون إليه ويرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، فإن فعلوا ذلك أعدوا أنفسهم للتقوى وبلغوا الغاية القصوى .

ثم عدد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر ، فجعل منها خلقهم أحياء قادرين على العمل والـكسب، ثم خلق الأرض مستقرا ومهادا لينتفعوا بخيراتها ويستخرجوا معادنها ونباتها ، ثم بنى لهم السماء التى زينها بالـكواكب وجعل فيها مصابيح يهتدى بها السارى فى الليل المظلم ، وأنزل منها الماء فأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها وأشكالها .

أفليس فى كل هذا ما يطوّح بالنظر ويهدى الفكر إلى أن خالق هذا الـكون البديع المثال لا ندّ له ولا نظير ، وأن ما جعلوه أندادا له لا يقدر على إيجاد شىء

مما خلق ، وأنهم يعلمون ذلك حق العلم ، فكيف يستغيثون بغير الله ويدعون غير الله ويستشفعون به ويتوسلون إليه ، مع أنه لا خالق ولا رازق إلا هو ؟

الإيضاح

(يأيها الناس اعبدوا ربكم) العبادة خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود ، والرب هو الذى يسوس من يربيه ويدبر شئونه ، وقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته بعبادة الله وحده ، وقد كان هذا صنيع كل نبى كما قال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

والمخاطبون بهذه الدعوة أولا هم العرب واليهود فى المدينة وما حولها ، وكانوا يؤمنون بالله ويعبدون غيره إما بدعائه مع الله ، أو من دون الله .

(الذى خلقكم والذين من قبلكم) أى أن هذا الرب العظيم المتصف بتلك الصفات التى تعلمونها ــ هو الذى خلقكم وخلق من قبلكم ورباكم وربى أسلافكم ودبر شئونكم ووهبكم من طرق الهداية ووسائل المعرفة مثل ماوهبهم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه .

(لعلكم تتقون) أى فاعبدوه على تلك الشاكلة ، فإن العبادة على هذا السنن هى التى تعدكم للتقوى ويرجى بها بلوغ درجة الكمال القصوى .

ثم ذكر بعض خصائص الربوبية التى تقتضى الاختصاص به تعالى فقال :

(الذى جعل لكم الأرض فراشا) أى هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها صالحة للافتراش والإقامة فيها .

(والسماء بناء) البناء وضع شىء على آخر بحيث يتكون من ذلك شىء بصورة خاصة ؛ أى هو الذى كون السماء بنظام متماسك كنظام البناء ، وسوى أجرامها على ما نشاهد وأمسكها بسنة الجاذبية حتى لا تقع على الأرض ولا يصطدم بعضها ببعض حتى يأتى اليوم الموعود .

(وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى وهو الذى أنزل من السماء مطرا يسقى به الزرع و يغذى به النبات فأخرج به ثمرا نأكل منه وننتفع به .

(فلا تجعلوا لله أنداداً) الندّ الشريك والكفء يقال فلان ند فلان إذا كان مماثلا له فى بعض الشئون ، والأنداد هم الذين خضع الناس لهم وقصدوهم فى قضاء حاجاتهم ، وكان مشركو العرب يسمون ذلك الخضوع عبادة إذ لم يكن عندهم شرع ينهاهم عن عبادة غير الله ، وأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أندادا وأربابا ـ كانوا يتحاشون هذا اللفظ ، فلا يسمون ذلك الاتخاذ عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة وأندادا ، بل يسمون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلا واستشفاعا وتشريعهم لهم بعض العبادات وتحليل المنكرات وتحريم بعض الطيبات فقها واستنباطا من التوراة والكل متفقون على أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا هو .

(وأنتم تعلمون) أى و إنكم لتعلمون بطلان ذلك ، و إنكم إذا سئلتم من رزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر ؟ تقولون : الله ، فلم إذا تدعون غيره وتستشفعون به ؟ .

ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التى لا تضر ولا تنفع ؟ ومن أين جاءكم أن التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله حتى قلتم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الناس بالنظر إلى القرآن أقسام ثلاثة : متقون يهتدون بهديه ، وجاحدون معاندون عن سماع حججه و براهينه ، ومذبذبون بين ذلك ـ طلب هنا إلى الجاحدين المعاندين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى أن القرآن

معجزته ـ أن يتعرفوا إن كان هو من عندالله كما يدعى أو هو من عند نفسه كما يدعون ، فيروزوا أنفسهم ويحاكوه ، لعلهم يأتون بمثل سورة من أقصر سوره ، وهم فرسان البلاغة وعصرهم أرقى عصور الفصاحة ، والكلام ديدنهم وبه تفاخرهم ، وكثير منهم حاز قصب السبق فى هذا المضمار ، ولم يكن محمد من بينهم ، فهو لم يمرن عليه ، ولم يبار أهله ولم ينافسهم فيه .

فإن عجزوا ولم يستطيعوا ذلك ، وهم لا يستطيعون وإن تظاهر أنصارهم وكثر أشياعهم ، بل لو اجتمعت الأنس والجن جميعا ، فليعلموا أن ما جاءهم به فأعجزهم لم يكن إلا بوحى سماوى وإمداد إلهى لا يسمو إليه محمد بعقله ولا يصل بيانه إلى مثل أسلوبه ونظمه ، وإذا استبان عجزهم ولزمتهم الحجة فقدصدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما ادعى ، وكان من ارتاب فى صدقه معاندا مكابرا واستحق العقاب وكان جزاؤه النار التى وقودها العصاة الجاحدون وما عبدوه من أحجار وأصنام ، أعدت لكل من جحد الرسل أو استحدث فى الدين ما هو منه براء .

الإيضاح

(وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أى إن ارتبتم فى أمر هذا القرآن وزعمتم أنه من كلام البشر فأتوا بمثله لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه سائر البشر .

(وادعوا شهداءكم من دون الله) أى ادعو الحاضرين فى مشاهدكم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون إليهم فى الملمات وتعولون عليهم فى المهمات .

وقد يكون المراد بالشهداء الأصنام ؛ أى ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق ، وابتعدوا عن الله ناصر محمد صلى الله عليه وسلم .

(إن كنتم صادقين) فى أن فيه مجالا للريب والشك ، وأن محمدا تقوّله من

تلقاء نفسه ، فلديكم مايهدى إلى الحق ويجلى الأمر ، فها هوالقرآن أمامكم فأتوا بسورة من مثله .

وقد نزل فى هـذا المعنى آيات كثيرة بمكة أولها ما فى سورة الإسراء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ثم ما فى سـورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم ما فى سورة يونس (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله) وما جاء فى هذه السورة المدنية .

(فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) النار موطن العذاب ، ونؤمن بها كما أخـبر القرآن ولا نبحث عن حقيقتهـا ، والوقود (بفتح الواو) ما توقد به النار ، والمراد بالناس العصاة ، والمراد بالحجارة هنا الأصنام كما قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وقوله : أعدت للكافرين ؛ أى هيئت للذين لا يستجيبون دعوة الرسل أو ينحرفون عنهـا لمخالفتهم هدى الدين وعمل ما تنكره شرائع الأنبياء والمرسلين .

والخلاصة : فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعـد أن بذلتم المجهود ، (ولن تفعلوه فليس فى استطاعتكم) فاحذروا من العناد واعـترفوا بكونه منزلا من عند الله ، لئلا تكونوا أنتم وأصنامكم وقوداً للنار التى أعدت لأمثالكم من الكافرين .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الكافرين وما أعدّ لهم من العقاب . قفى على ذلك ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعدّ لهم من نعيم مقيم فى الدار الآخرة ، وقد جرت سنة القرآن أن يقرن الترهيب بالترغيب تنشيطاً لاكتساب ما يوجب الزلفى عند الله ، وتثبيطاً عن اقتراف ما يوجب البعد من رضوانه تعالى .

والمأمور بهذا التبشير كل من يسمع الأمر من أهله ، وقد وعد الله الذين آمنوا بهذه الجنات وما فيها من لذات ، ونفوض علم ذلك إلى الله تعالى ونكتفى بما ورد من أن لذات الآخرة أعلى من لذات الدنيا ، فقد روى عن ابن عباس : أنه قال ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسامى ، وجاء فى الصحيحين مرفوعا عن الله عز وجل « أعددت لعبادى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وهو فى المعنى مفسر لقوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

الإيضاح

(وبشر الذين آمنوا) البشارة الإخبار بما يسر ، وآمنوا أى بالله وصفاته التى جاء بها النقل وأيدها العقل ، وبالنبى وبما جاء به ، وبالبعث والجزاء ، ولا يتحقق الإيمان إلا باطمئنان القلب وقيام البرهان الذى لا يقبل الشك والارتياب ، وأفضل البراهين ما أرشد إليه القرآن من النظر فى آيات الله فى الآفاق والأنفس ، فقد يبلغ الإنسان علم اليقين بنظرة صادقة فى هذا الكون الذى بين يديه ، أو فى نفسه إذا تجلت له بغرائب خلقها وبدائع صنعها .

(وعملوا الصالحات) العمل الصالح معروف عند الناس فقد أودع فى فطرتهم ما يميزون به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بما يطرأ على نفسه من زيغ يحيد به عن الهدى ، ويتبعه آخرون فى ضلاله فتتولد التقاليد الضارة ، وتكون هى

ميزان الخير والصلاح لدى الضالين وإن كانت مخالفة لأصل الفطرة كما ورد فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وقد بين الكتاب الأعمال الصالحة فى آى كثيرة كقوله (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

(أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) قال الفراء : الجنة البستان فيه النخيل ، والفردوس البستان فيه الكرم ، والمراد بها هنا دار الخلود فى الحياة الآخرة أعدها الله للمتقين كما أعد النار للكافرين ، ونحن نؤمن بهما ولا نبحث عن حقيقتهما . والأنهار واحدها نهر (بفتح الهاء وسكونها) وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كنيل مصر ، وجرى الأنهار من تحتها هو كما نشاهد فى الأشجار التى على شواطئ الأنهار الجارية .

(كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى كلما رزقوا من الجنة رزقا من بعض ثمارها قالوا هذا الذى وعدنا به فى الدنيا جزاء على الإيمان وصالح العمل ، فهو من وادى قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) .

(وأتوا به متشابها) أى أن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها فى صورته ويختلف فى طعمه ولذته .

(ولهم فيها أزواج مطهرة) أى ولهم فى الجنات أزواج تطهرن غاية التطهر ، فليس فيهن ما يعبن عليه من خبث جسدى مما عليه النساء فى الدنيا كالحيض والنفاس ، أو نفسى كالكيد والمكر وسائر مساوى الأخلاق .

وصحبة الأزواج فى الآخرة من الأمور الغيبية التى نؤمن بها كما أخبر الله ولا نبحث فيما وراء ذلك ، فأطوار الآخرة أعلى مما فى حياتنا الدنيا ، فهى سالمة من المنغصات فى الطعام والشراب والمباشرة الزوجية ، روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخطون ، قالوا فما بال الطعام ، قال جُشاء ورشح كرشح المسك ، ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس » .

(وهم فيها خالدون) الخلود لغة المكث الطويل ، قال فى الأساس : ومن كلامهم خلد فلان فى السجن أى أقام طويلا ، ويراد به فى لسان الشرع الدوام الأبدى أى هم لا يخرجون منها ولا هى تفنى وتزول ، بل هى حياة أبدية لا تنتهى .

إِنَّ ٱللهَ لاَ يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللهُ بِهٰذَا مَثَلاً ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

المفردات

الحياء تغيّر وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم ، يقال فلان يستحى أن يفعل كذا أى أن نفسه تنقبض عن فعله ، وكأن الحياء ضعف فى الحياة لأنه يؤثر فى القوة المختصة بالحيوان وهى قوة الحس والحركة ، وفعله استحى واستحيا ويقال استحييته واستحييت منه ، والمثل فى اللغة الشبيه والنظير ، وضرب المثل فى الكلام أن يذكر لحال ما يناسبها فيُظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، وهو

مأخوذ من ضرب الدراهم وهو إحداث أثر خاص فيها ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، ولا يظهر التأثير فى النفس بتحقير شيء وتقبيحه إلا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه ، والمراد بما فوق البعوضة ما زاد عليها وفاقها فى الصغر كالجراثيم التى لا ترى إلا بالمنظار المكبر ، وكانوا قديما يضربون المثل فى الصغر بمخ النملة والبعوضة ، فقد قالوا : أعز من مخ البعوضة ، وجاء فى الحديث « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » والحق هو الشيء الذى يحق ويجب ثبوته ولا يجد العقل سبيلا إلى إنكاره ، والفسق لغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت ، والنقض فك الحبل والغزل ونحوهما ، والميثاق ما يوثق به الشيء ويكون محكما يعسر نقضه ، وعهد الله ما أخذه على عباده من فهم السنن الكونية بالنظر والاعتبار بما أوتوه من نعمة العقل والحواس المرشدة إلى الفهم ، ونقضه عدم استعمال تلك المواهب فيما خلقت له حتى كأنهم فقدوها .

المعنى الجملى

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتنزيه القرآن الكريم من ريب خاص اعترى اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) وقوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) إثر تنزيهه من مطلق الريب بما تحداهم به فى الآيات السابقة ، إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن ذلك ليس بمطعن فى القرآن ، بل هو أنصع برهان على أنه من عند خالق القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين

المثل وما مثل له ، فالعظيم يمثل له بالعظيم ، والحقير يمثل له بالحقير ، ألا ترى إلى الإنجيل وقد مثل غل الصـــدر بالنخالة ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير ، وجاء فى عباراتهم (أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب ، وأضعف من بعوضة) .

وما الأمثال إلا إبراز للمعانى المقصودة فى قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفس وتستنزل الوهم عن معارضة العقل ، والحكيم علام الغيوب يعلم حكمة هـذا فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك .

والناس إزاء هـذا فريقان : مؤمنون يقولون إن الله خالق الأشياء حقيرها وعظيمها فالكل لديه سواء ، وكافرون يستهزئون بالأمثال احتقاراً لها ، فحقت عليهم كلمة ربهم فأصبحوا من الخاسرين .

الإيضاح

(إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) أى إن الله جلت قدرته لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما دونها ، لأنه هو الخالق لكل شىء جليلا كان أو حقيراً .

(فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) أى فالمؤمنون يقولون ما ضرب الله هذا المثل إلا لحكم ومصالح اقتضت ضربه لها ، وهى تقرير الحق والأخذ به ، فهو إنما يُضرب لإيضاح المبهم بجعل المعقولات تلبس ثوب المحسوسات ، أو تفصيل المجمل لبسطه وإيضاحه .

(وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) الذين كفروا هم اليهود والمشركون وكانوا يجادلون بعد أن استبانت لهم الحجة وحصحص الحق ويقولون ماذا أراد الله بهذه المُثُل الحقيرة التى فيها الذباب والعنكبوت ، ولو أنصفوا لعرفوا وجه الحكمة فى ذلك وما أعرضوا وانصرفوا (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) .

ثم أجاب عن سؤالهم بقوله :

(يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) أى أن من غلب عليهم الجهل إذا سمعوه كابروا وعاندوا وقابلوه بالإنكار فكان ذلك سببا فى ضلالهم، ومَن عادتهم الإنصاف والنظر بثاقب الفكر إذا سمعوه اهتدوا به، لأنهم يقدرون الأشياء على حسب فائدتها

ومن المعلوم أن أنفع الكلام ما تجلت به الحقائق واهتدى به السامع إلى سواء السبيل، وأجله فى ذلك الأمثال كما قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) والعالمون هم المؤمنون المهتدون بهدى الحق.

وقد جعل الله المهتدين فى الكثرة كالضالين، مع أن هؤلاء أكثر كما قال (وقليل من عبادى الشكور) إشارة إلى أن المؤمنين المهتدين على قلتهم أكثر نفعاً وأجل فائدة من أولئك الكفرة الفاسقين.

إن الكرام كثير فى البلاد وإن قلوا كما غيرهم قلٌّ وإن كثروا

ثم أكمل الجواب وزاد فى البيان فقال:

(وما يضل به إلا الفاسقين) أى وما يضل بضرب المثل إلا الذين خرجوا عن سنة الله فى خلقه وهداهم إليها بالعقل والمشاعر والكتب المنزلة على من أوتوها.

وفى هذا إيماء إلى أن علة إضلالهم ما كانوا عليه من الخروج عن السنن الكونية التى جعلها الله عبرة لمن يتذكر، فانصرفت أنظارهم عن التدبر فى حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه.

ثم زاد فى ذم الفاسقين بذكر أوصاف مستقبحة لهم فقال:

(الذين ينقضون عهد الله) أى الذين يستعملون المواهب التى خلقها الله لعباده من عقل ومشاعر وحواس ترشدهم إلى النظر والاعتبار فى غير ما خلقت له حتى كأنهم فقدوها كما قال (لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، أولئك هم الغافلون).

وهذا العهد الذى نقضوه هو العهد الفطرى، وهناك عهد آخر جاءت به الشرائع وهو العهد الدينى، وقد وثق الله الأول بجعل العقول قابلة لإدراك السنن الإلهية التى

فى الكون ، كما وثق الثانى بما أيد به الأنبياء من الحجج والبراهين الدالة على صدقهم ، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سننه فى إبلاغ القوى البشرية والنفسية حد الكمال الإنسانى الممكن لها .

(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أمر الله ضربان ، أمر تكوين وهو ما عليه الكون من بديع الصنع ودقيق النظام كإفضاء الأسباب إلى مسبباتها والمقدمات إلى نتائجها ، ومعرفة المنافع والمضار بغاياتها ، وأمر تشريع وهو ما جاء به الأنبياء من الشرائع لتبليغه للناس ليعملوا به .

فمن أنكر الإله وصفاته بعد أن شهدت بوجوده الآثار المنبثة فى الكون ، أو أنكر نبوة نبىّ بعد أن أقام الدليل على صدقه فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى العهد الفطرى ، لأنه قطع الصلة بين الدليل والمدلول .

ومن أنكر شيئا مما علم أن الرسول قد جاء به من الأوامر والنواهى فقد قطع ما أمر الله به فى كتبه أمر تشريع وتكليف ، وهو لا يأمر إلا بما أثبتت التجربة منفعته ، ولا ينهى إلا عما ثبتت مضرته .

ومشركو العرب بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم نقضوا عهد الفطرة ، وأهل الكتاب نقضوا العهدين معا ، فإن الله بشرهم فى الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبى صلى الله عليه وسلم بذكر صفاته ، فحرفوا وأولوا متعمدين كما قال تعالى (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) .

(ويفسدون فى الأرض) بصدهم عن سبيل الله يبغونها عوجا ، وبالاستهزاء بالحق بعد ما تبين ، وإهمالهم هداية العقل وهداية الدين ، فوجودهم فى الأرض مفسدة لأنفسهم ومفسدة لأهلها .

(أولئك هم الخاسرون) لأن إفسادهم لما عم العقائد والأخلاق بفقد هداية الفطرة وهداية الدين ، استحقوا الخزى فى الدنيا بحرمان السعادة الجسمية والعقلية والخلقية ، والعذاب الأليم فى الآخرة ، ومن خسر السعادتين كان فى خسران مبين .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

المعنى الجملى

وجه الله الخطاب فى هاتين الآيتين إلى أولئك الفاسقين الذين ضلوا بالمثل بعد أن وصفهم بالصفات الشنيعة من نقض العهد الموثق وقطع ما أمر الله به أن يوصل والإفساد فى الأرض ، وجاء به على طريق التوبيخ والتعجيب من صفة كفرهم بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان الصادة عن الكفر ، وهى النعم المتظاهرة الدالة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى منتهاه ، من إحيائهم بعد الإماتة وتركيب صورهم من الذرات المتناثرة والنطف الحقيرة المهينة ، وخلق لهم ما فى الأرض جميعاً ليتمتعوا بجميع ما فى ظاهرها وباطنها على فنون شتى وطرق مختلفة ، وخلق سبع سموات مزينة بمصابيح ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

أفبعد هذا كله يكفرون به وينكرون عليه أن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويضرب لهم الأمثال ليهتدوا بها فى إيضاح ما أشكل عليهم مما فيه أمر سعادتهم فى دينهم ودنياهم ؟

الإيضاح

(كيف تكفرون بالله) أى على أى حال تكفرون بالله ، وعلى أى شبهة تعتمدون ، وحالكم فى موتتيكم وحياتيكم لا يدع لكم عذرا فى هذا الكفران به والاستهزاء بما ضربه من المثل وإنكار نبوة نبيه .

(وكنتم أمواتاً فأحياكم) أى والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة فى الحياة

الدنيا أمواتاً ، أجزاؤكم متفرقة فى الأرض ، بعض منها فى الطبقات الجامدة وأخرى فى الطبقات السائلة ، وقسم فى الطبقات الغازية ، تشترك كون سائر أجزاء الحيوان والنبات فى ذلك ، ثم خلقكم فى أحسن تقويم وفضلكم على غيركم بنعمة العقل والإدراك والفهم ، وتسخير جميع الكائنات الأرضية لكم .

(ثم يميتكم) حين انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التى بها نظام حياتكم وحينئذ تنحل أبدانكم وتعود سيرتها الأولى وتنبث فى طبقات الأرض وينعدم هذا الوجود الخاص الذى لها .

(ثم يحييكم) حياة أخرى أرقى من هذه الحياة وأكمل لمن زكى نفسه وعمل صالحا ، ودونها لمن أفسد فطرته وأهمل التدبر فى سنن الكون وأنكر الإله والرسل وفسق عن أمر ربه .

(ثم إليه ترجعون) للحساب والجزاء على ما قدمتم من عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) بعد أن عدد سبحانه آياته فى الأنفس بذكر المبدأ والمنتهى ـ ذكر آياته فى الآفاق الدالة على قدرته المحيطة بكل شىء وعلى نعمه المتظاهرة على عباده بجعل ما فى الأرض مهيأ لهم ومعدا لمنافعهم بإحدى وسيلتين :

(١) إما بالانتفاع بأعيانه فى الحياة الجسدية ليكون غذاء للأجسام أو متعة لها فى الحياة المعيشية .

(٢) وإما بالنظر والاعتبار فيما لا تصل إليه الأيدى فيستدل به على قدرة مبدعه ويكون غذاء للأرواح .

وبهذا نعلم أن الأصل إباحة الانتفاع بكل ما خلق فى الأرض ، فليس لمخلوق حق فى تحريم شىء أباحه الله إلا بإذنه كما قال (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) .

(ثم استوى إلى السماء) السماء كل ما فى الجهة العليا فوق رءوسنا ، واستوى إليها أى قصدها قصدا مستويا بلاعاطف يثنيه من إرادة خلق شىء آخر فى أثناء خلقها.

(فسواهن سبع سموات) أى أتم خلقهن فجعلهن سبع سموات تامات الخلق والتكوين .

وفى الآية إيماء إلى أن خلق الأرض وما فيها كان سابقا على تسوية السموات سبعا ، وهذا لا يخالف قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها) لأن كلمة (بعد) فيها بعدية فى الذكر لا فى الزمان ، فمن استعمالاتهم أن يقولوا : أحسنت إلى فلان بكذا ، وقدمت إليه المعونة و بعد ذلك ساعدته فى عمله،على معنى وزيادة على ذلك ساعدته ، أو أن الذى كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض أى تمهيدها للسكنى والاستعمار لا مجرد خلقها وتقدير الأقوات فيها .

(وهو بكل شىء عليم) أى أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من لدن حكيم عليم بما خلق ، فلا عجب أن يرسل رسولا يوحى إليه بكتاب لهداية من يشاء من عباده يضرب فيه الأمثال بما شاء من مخلوقاته ، جل أو حقر ، عظم أو صغر .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

المفردات

خليفة أى عن نوع آخر أو خليفة عن الله فى تنفيذ أوامره بين الناس ، السفك والسفح والسكب الصب ، والتسبيح تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والتقديس إثبات ما يليق .

المعنى الجملى

هذه الآية كالتى قبلها تعداد للنعم الصارفة عن العصيان والكفر الداعية إلى الإيمان والطاعة ، فان خلق آدم على تلك الصورة وما أوتيه من نعمة العلم وحسن التصرف فى الكون وجعله خليفة الله فى أرضه - لمن أجل النعم التى يجب على ذريته أن يشكروه عليها بحسن طاعته والبعد عن كفرانه ومعصيته .

وفيها وفيما بعدها قَصص لأخبار النشأة الإنسانية أبرز فيه حكما وأسرارا جاءت فى صورة مناظرة وحوار - وهو من المتشابه الذى لا يمكن حمله على المعنى الظاهر منه ، لأنه إما استشارة من الله لعباده وذلك محال ، وإما إخبار منه للملائكة فاعتراض منهم ومحاجة ، وذلك لا يليق بالله ولا بملائكته على حسب ما جاء فى وصفهم بقوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ومن ثم كان للعلماء فيه وفى أمثاله رأيان .

(ا) رأى المتقدمين منهم وهو تفويض الأمر إلى الله فى بيان المراد من كلامه ، مع علمنا بأنه لا يخبرنا بشىء إلا لنستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا ، بذكر ما يقرب المعانى إلى عقولنا .

فهذا الحوار المصور بصورة القول والمراجعة والسؤال والجواب لا ندرك حقيقة المراد منه ، وإن كنا نجزم بأن هناك مقاصد أريد إفادتها بهذه العبارات ، وأن الله كان يعدّ لآدم الكون وأن لهذا المخلوق كرامة لديه بما أودعه فيه من فضائل ومزايا ، وفائدة ذكر ذلك لنا من نواح عدة :

(١) بيان أن لا مطمع للانسان فى معرفة جميع أسرار الخليقة وحِكَمها ، فالملائكة وهم أولى منا بعلمها عجزوا عن معرفتها .

(٢) أن الله قد هدى الملائكة بعد حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم ، بأن

أرشدهم إلى الخضوع والتسليم أولا بقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) ثم بالدليل ثانيا بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة .

(٣) أن الله جلت قدرته رضى لخلقه أن يسألوه عما خفى عليهم من أسراره فى الخليقة ، والسؤال كما يكون بالمقال يكون بالحال بالتوجه إلى الله أن يفيض عليهم العلم بمعرفة ما أشكل عليهم .

(٤) تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المشركين له ومحاجتهم بلا برهان يستندون إليه ـ بأنه لا بدع فى ذلك ، فالملائكة طلبوا الدليل والبرهان من ربهم فيما لا يعلمون ، فالأنبياء يجدر بهم أن يصبروا على المكذبين ويعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، ويأتوهم بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة .

(ب) رأى المتأخرين منهم ـ وهو تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين ، لأنها إنما وضعت على أساس العقل ، فإذا ورد فى النقل شىء يخالف حكم العقل ، حمل النقل على غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل .

وعلى هذا ـ فالقصة وردت مورد التمثيل لتقريبها من أذهان الخلق ، بإفهامهم حال النشأة الآدمية ومالها من ميزة خاصة ـ بأن أخبر الله ملائكته بأنه جاعل فى الأرض خليفة ـ فعجبوا وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال بالتوجه إليه تعالى أن يفيض عليهم المعرفة ـ كيف تخلق هذا النوع ذا الإرادة المطلقة والاختيار الذى لاحد له ، وربما اتجه بإرادته إلى خلاف المصلحة والحكمة ، وذلك هو الفساد ، فألقى عليهم بطريق الإلهام وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شىء عليم ، فما يضيق عنه علم أحد يتسع له علم من هو أعلم منه ، وهذا جواب ربما لا يذهب بالحيرة ، ومن ثم تفضل على الملائكة وأبان لهم الحكمة فى خلق هذا النوع ، فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فعلموا أن فى فطرة هذا النوع استعداداً لعلم مالم يعلموا ، وأنه أهل للخلافة فى الأرض ، وأن سفك الدماء لايذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته .

وخلاصة هذا — أن الملائكة تشوفوا لمعرفة الحكمة فى استخلاف ذلك المخلوق الذى من شأنه ما قالوا ، ومعرفة السر فى تركهم وهم المجبولون على تسبيحه وتقديسه — فأعلمهم الله أنه أودع فيه من السر ما لم يودعه فيهم ، هذا مجمل ما جلّى به الأستاذ الإمام محمدعبده رحمه الله هذا البحث حين تفسيره للآية ونقله عنه صاحب المنار فى تفسيره .

الإيضاح

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) أى واذكر لقومك مقال ربك للملائكة : إنى جاعل آدم خليفة عن نوع آخر كان فى الأرض وانقرض بعد أن أفسد فى الأرض وسفك الدماء وسيحل هو محله ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى بعد ذكر إهلاك القرون (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) ومن ثم استنبط الملائكة سؤالهم بالقياس عليه ، وعلى هذا فليس آدم أول أصناف العقلاء من الحيوان فى الأرض .

ويرى جمع من المفسرين أن المراد بالخلافة الخلافة عن الله فى تنفيذ أوامره بين الناس ، ومن ثم اشتهر « الإنسان خليفة الله فى الأرض » وقال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) .

وهذا الاستخلاف يشمل استخلاف بعض أفراد الإنسان على بعض ، بأن يوحى بشرائعه على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه ، واستخلاف هذا النوع على غيره من المخلوقات بما ميزه به من قوة العقل ، وإن كنا لا نعرف سرها ولا ندرك كنهها ، وهو بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود العلم ، يتصرف فى الكون تصرفا لاحد له ، فهو يبتدع ويفتَنّ فى المعدن والنبات وفى البر والبحر والهواء ، ويغير شكل الأرض فيجعل الماحل خصبا ، والحَزْن سهلا ، ويولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن ، ويتصرف فى أنواع الحيوان كما شاء بضروب التوليد ، ويسخر كل ذلك لخدمته .

ولا أدلّ على حكمة الله من جعل الإنسان الذى اختص بهذه المواهب خليفة فى الأرض يظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته .

(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) أى أتجعل من يقتل النفوس المحرمة بغير حق خليفة فى الأرض ؟

(ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أى أتستخلف من هذه صفته ونحن المعصومون؟

(قال إنى أعلم مالا تعلمون) أى قال لهم ربهم : إنى أعلم من المصلحة فى استخلافه ما هو خفى عليكم ، وفى هذا إرشاد الملائكة أن يعلموا أن أفعاله تعالى كلها بالغة غاية الحكمة والكمال وإن عُمِّىَ ذلك عليهم .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

المعنى الجملى

قد علمت مما سبق أن هذه المراجعات والمناظرات إما أن نفوض أمر معرفتها إلى الله كما هو رأى السلف ، وإما أن نلجأ فيها إلى التأويل ، وأحسن طرقه أن يكون الكلام ضربا من التمثيل بإبراز المعانى المعقولة بالصور المحسوسة تقريبا للأفهام .

وبهذا القصص نعرف ما امتاز به النوع الإنسانى من غيره من المخلوقات ، وأنه مستعد لبلوغ الكمال العلمى إلى أقصى الغايات ، دون الملائكة ، ومن ثم كان أجدر بالخلافة منهم .

الإيضاح

(وعلم آدم الأسماء كلها) الأسماء واحدها اسم وهو فى اللغة ما به يعلم الشيء ، فاسم الله مثلا هو ما به عرفناه فى أذهاننا بحيث يقال إنا نؤمن بوجوده ، وهو بهذا الإطلاق هو الذى يتقدس ويتبارك ويتعالى كما جاء فى قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) — (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) .

أو يقال المراد من الأسماء المسميات وعبر بها عنها للصلة الوثيقة بين الدال والمدلول وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر ، وأيا كان فإن العلم الحقيقى إنما هو إدراك المعلومات ، أما الألفاظ الدالة عليها فهى تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح .

والله تعالى علم آدم الأجناس التى خلقها وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ولا فارق بين أن يكون هذا العلم فى آن واحد أو آنات متعددة ، فالله قادر على كل شيء وإن كان لفظ (علّم) يشعر بالتدريج كما يشهد له نظائره من نحو (وعلمك ما لم تكن تعلم) — (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) إلى نحو ذلك من الآيات التى فيها لفظ التعليم ، لكن المتبادر هنا أنه كان دفعة واحدة .

(ثم عرضهم على الملائكة) أى ثم أطلعهم على مجموعة تلك الأشياء إطلاعا إجماليا بالإلهام أو غيره مما يليق بحالهم ، وربما كان بعرض نماذج من كل نوع يتعرف منها أحوال البقية وأحكامها .

والحكمة فى التعليم والعرض تشريف آدم واصطفاؤه ، كى لا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم ، وإظهار الأسرار والعلوم المكنونة فى غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده .

(فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء) الإنباء فى الأصل الإخبار ، وقد يستعمل فى الإخبار بما فيه فائدة عظيمة وهو المراد هنا ، إيذاناً برفعة شأن الأسماء وعظيم خطرها .

وأمرهم بهذا الإنباء إظهارا لعجزهم عن معرفتها ، وإشارة إلى أن الخلافة فى الكون والتصرف فيه وتدبير شؤونه وإقامة العدل فيه تكون بعد الوقوف على مراتب الاستعداد ومعرفة من يكون أهلا للخلافة .

(إن كنتم صادقين) أى إن كان هناك مجال للدهشة فى كون الخليفة من البشر وفى أن ما اختلج فى خواطركم من الشبهة أصاب الصواب وحل محله من القبول ، فأنبئونى بأسماء ما عرضته عليكم .

وإنا لنسترشد بهذه الآية إلى أن المدعى لشىء يطالب بالحجة والبرهان تأييدا لما ادعى ، فالملائكة قد بحثوا عن سر الغيب فقرعوا بالعيان ، فكأنه قيل لهم : أنتم لا تعلمون أسرار ما تعاينون ، فكيف تتكلمون فى أسرار ما لا تعاينون .

وفى قوله (هؤلاء) إشارة إلى أنه سمى الأشياء التى وقع عليها حسه كالطيور والبهائم وأنواع الحيوان التى أمامه .

(قالوا سبحانك) أى نقدسك عما لا يليق بك من قصور العلم فتخلق الخليفة عبثا خاليا من الحكمة والفائدة ، أو تسألنا عن شىء نفيده ، وأنت تعلم أن علمنا لا يحيط به ولا نقدر على الإنباء به .

وكلمة (سبحانك) تقدم فى معرض التوبة كما قال موسى عليه السلام (سبحانك تبت إليك) وقال يونس (سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

(لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو علم محدود لا يتناول جميع الأشياء ولا يحيط بكل المسميات ، وهذا منهم اعتراف بالعجز عما كلفوه ، وإشعار بأن سؤالهم كان سؤال مستفسر لا سؤال معترض ، وفيه ثناء على الله بما أفاض عليهم من العلم مع تواضع وأدب ، فكأنهم قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا على حسب استعدادنا ، ولو كنا مستعدين لأكثر من ذلك لأفضت علينا ، ثم أكد ما تقدم بقوله :

(إنك أنت العليم الحكيم) العليم هو الذى لا تخفى عليه خافية ، والحكيم أى المحكم لمبتدعاته ، الذى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة البالغة .

وفى هذا الجواب منهم إيذان بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب عليهم ألا يغفلوا عن مثله من التفويض لواسع علم الله وعظيم حكمته بعد أن تبين لهم ما تبين ، و إيماء إلى أن الإنسان ينبغى له ألا يغفل عن نقصانه ، وعن فضل الله عليه و إحسانه ولا يأنف أن يقول لا أعلم إذا لم يكن يعلم ، ولا يكتم الشيء الذى يعلم .

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أى أعلمهم بأسمائهم التى عجزوا عن علمها ، واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها .

وقال: أنبئهم دون أنبئنى للاشارة إلى أن علمه عليه السلام بها ظاهر لايحتاج إلى ما يجرى مجرى الامتحان ، و إلى أنه جدير أن يعلّم غيره ، فتكون له منة المعلم المفيد ، ولهم مقام المتعلم المستفيد ، ولئلا تستولى عليه الهيبة ، فإن إنباء العالم ليس كإنباء غيره .

(فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) أى فلما أنبأهم بأسمائهم و بين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه ، قال تعالى للملائكة : قد قلت لكم إنى أعلم ما غاب فى السموات والأرض فلا أخلق شيئا سدى ، ولا أجعل الخليفة فى الأرض عبثا ، وأعلم ما تظهرون من نحو قولكم (أتجعل فيها من يفسد فيها) وما كنتم تكتمون من نحو قولكم : لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ، فنحن أحقاء بالخلافة فى الأرض .

وفى هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات ، وعلى فضل العلم على العبادة ، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ولم يكونوا أهلا لاستحقاق الخلافة ، وعلى أن شرط الخلافة العلم بل هو العمدة فيها ، وعلى أن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم ، والأفضل هو الأعلم بدليل قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وفى استخلاف آدم فى الأرض معنى سام من الحكمة الإلهية خفى على الملائكة فإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون وما أودع فيه من الخواص ، فإنهم ليسوا بحاجة إلى شىء مما فى الأرض ، إذ هم على حال يخالف حال الإنسان ،

فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع ، ولا تستخرج المعادن من باطنها ولا تعرف خواصها الكيميائية والطبيعية ، ولا تعرف الأجرام الفلكية ولا المستحدثات الطبية ولا شيء من العلوم التي تفنى السنون ولا يدرك الإنسان لها غاية .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

المعنى الجملي

بعد أن أعلم الله تعالى الملائكة مكانة آدم وأنه جعله خليفة في الأرض ، أمرهم بالسجود له سجود خضوع لا سجود عبادة ، اعترافا بفضله واعتذاراً عما قالوه في شأنه من قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها .

الإيضاح

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) السجود لغة الخضوع والانقياد ، ومن أعظم مظاهره وضع الجبهة على التراب ، وكان تحية للملوك عند بعض القدماء كما ورد من سجود يعقوب وأولاده ليوسف .

والسجود لله قسمان : سجود العقلاء تعبداً على الوجه المعروف شرعا ، وسجود المخلوقات كلها بانقيادها وخضوعها لمقتضى إرادته كما قال «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» وقال « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » .

والملائكة من عالم الغيب لا نعرف حقيقتهم ، والكتاب الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء في لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين وهو مشهور في الكتاب والسنة ، فقد روى الترمذي « إن للشيطان لَمَّةً بابن آدم ، وللملك لمة » . فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ،

فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) واللمة الإلمام والإصابة .

فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس لا نعرف حقيقته ، بل نؤمن بما ورد فيه ولا نزيد عليه شيئاً آخر .

ويرى بعض المفسرين أن ما ورد من أن الملائكة موكلون بالأعمال من إنماء نبات وخلق حيوان وحفظ إنسان ، فمعناه أن هذا النمو فى النبات إنما هو بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة المخصوصة ، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان ، فكل شىء قائم بنظام خاص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكا ، ومن لا يعترف بالغيب يسميه قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا ، فالمؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن به يقول أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، وإذا فلا خلاف بين الناس فى وجود شىء غير ما يرى ويحس ،لا يفهم حق الفهم ولا يصل العقل إلى إدراك كنهه.

وكلنا نشعر إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن فى نفوسنا تنازعا وكأن الأمر قد عرض على مجلس للشورى ، فواحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذى أودع فى نفوسنا ونسميه قوة وفكرا هو فى الحقيقة معنى لا ندرك كنهه ، ولا يبعد أن نسميه أو نسمى سببه ملكا ، انتهى كلامه ملخصاً .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده ، فإذا جرينا على هذا التفسير فليس ببعيد أن تكون فى الآية إشارة إلى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من المخلوقات لا يتعداه خلق الإنسان وأعطاه قوة بها يتصرف فى جميع القوى ويسخرها فى عمارة الأرض ، وهذا التسخير هو المعبر عنه بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع ، وبهذه القوة التى لا حد لها جعله الله خليفة فى أرضه ، لأنه أكمل الموجودات ، واستثنى من هذه

القوى قوة واحدة تميل بالكامل إلى النقص ، وتصده عن عمل الخير ، وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته ، تلك القوة ضللت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم إلها يسمى إله الشر ، وما هى بإله ولكنها محنة إله لايعلم أسرار حكمته إلا هو ، تلك القوة هى المعبر عنها بإبليس .

ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق ، انتهى كلامه رحمه الله .

(فسجدوا إلا إبليس) أى سجد الملائكة جميعاً إلا إبليس .

وللعلماء فى حقيقة إبليس رأيان : أحدهما أنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بهم متصفا بصفاتهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ولأن الملائكة لايستكبرون وهو قد استكبر ، وهو قد خلق مما خلق منه الجن كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

ثانيهما أنه كان من الملائكة ، لأن خطاب السجود كان مع الملائكة ، ولأن الظاهر من هذه الآية وأمثالها أنه منهم ، قال البغوى وهو الأصح ، وقال فى التيسير : إن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على تصور العصيان منهم ، ولولا ذلك ماامدحوا به ، لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولا يستنكر من الملائكة تصور العصيان فقد ذكر عن هاروت وماروت ما ذكر ، وليس هناك دليل على أن بين الملائكة والجن فروقا جوهرية بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هى فروق فى الأوصاف فقط ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقائقها ولا نضيف إليها شيئاً إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

(أبى واستكبر) أى امتنع عما أمر به من السجود ، وأظهر كبره وترفع عن

الحق زعما منه أنه خير من الخليفة عنصرا وأزكى جوهرا كما قص ذلك عنه « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » فهو الأحق بالرياسة .

(وكان من الكافرين) أى صار من الكافرين برفض الإذعان لأمر الله لزعمه أنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يخضع لمن دونه .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

المعنى الجملى

علمت مما سلف أن الحكمة الإلهية اقتضت إيجاد النوع الإنسانى فى الأرض واستخلافه فيها ، وأن الملائكة فهموا أنه يفسد نظامها ويسفك الدماء ، فأعلمهم المولى بأن علمهم لا يرقى إلى الإحاطة بمعرفة حكمته ، وأن الله أوجد آدم وفضله بتعليم الأسماء كلها ، وأنه تعالى أخضع له الملائكة إلا إبليس فقد أبى واستكبر عن السجود لما فى طبيعته من الاستعداد للعصيان ، وهنا ذكر أنه تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها ونهاهما أن يأكلا من شجرة معينة ، وأعلمهما أن القرب منها ظلم لأنفسهما ، وأن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما من ذلك النعيم ، وأن آدم أناب إلى الله من معصيته فقبل توبته ، وقد سيقت هذه القصة تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر ، فالضعف غريزة فيهم ينتهى إلى أول سلف منهم وهو أبوهم آدم عليه السلام فقد تغلبت عليه الوساوس ، فلا تأس أيها الرسول الكريم على القوم الكافرين ولا تذهب نفسك عليهم حسرات

الإيضاح

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى اتخذ الجنة مسكناً لك ولزوجك. واختلفت آراء العلماء فى الجنة المرادة هنا ، فمن قائل إنها دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها فى هذه السورة ، وفى ظواهر السنة مايدل عليه ، فهى إذا فى السماء حيث شاء الله منها .

ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام ، وكانت بستاناً فى الأرض بين فارس وكِرْمان ، وقيل بفلَسْطين وليست هى الجنة المعروفة ، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات ، قال : نحن نعتقد أن هـذه الجنة بستان من البساتين ، أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم اه .

قال الألوسى فى تفسيره روح المعانى : ومما يؤيد هذا الرأى :

(١) أن الله خلق آدم فى الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته ، فالخلافة منهم مقصودة بالذات ، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة .

(٢) أنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم فى الأرض عُرج به إلى السماء ، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم .

(٣) أن الجنة الموعود بها لايدخلها إلا المتقون المؤمنون ، فـكيف دخلها الشيطان الـكافر للوسوسة .

(٤) أنها دار للنعيم والراحة ، لا دار للتكليف ، وقد كلف آدم وزوجه ألا يأكلا من الشجرة .

(٥) أنه لايمنع من فيها من التمتع بما يريد منها .

(٦) أنه لايقع فيها العصيان والمخالفة لأنها دار طهر ، لا دار رجس .

وعلى الجملة فالأوصاف التى وصفت بها الجنة الموعود بها ، ومنها أن عطاءها غير مجذوذ ولا مقطوع لا تنطبق على جنة آدم اهـ .

(وكلا منها رغداً حيث شئتما) الرغد الهنىء الذى لا عناء فيه ، أو الواسع ، يقال : رغِد عيش القوم إذا كانوا فى رزق واسع كثير ، وأرغد القوم أخصبوا وصاروا فى رغد من العيش؛ أى كلا منها أكلا هنيئا من أى مكان شئتما ، وأباح لهما الأكل كذلك إزاحة للعذر فى التناول من الشجرة المنهى عنها من بين أشجارها التى لا حصر لها .

(ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظالمين) لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة ، فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع ، ولأن المقصود يحصل بدون التعيين ، ولكنا نقول إن النهى كان لحكمة كأن يكون فى أكلها ضرر أو يكون ذلك ابتلاء من الله لآدم واختبارا له ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها ، ولو كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضرر .

وقوله من الظالمين : أى لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها من المعصية ، أو بنقصان حظوظكما بفعل ما يمنع الكرامة والنعيم ، أو بتعدى حدود الله .

وقد علق النهى بالقرب منها وهو مقدمة الأكل ، تنبيها إلى أن القرب من الشىء يورث ميلا إليه يلهى القلب عما يوجبه العقل والشرع .

(فأزلهما الشيطان عنها) أى حملهما على الزلة بسبب الشجرة ، وقد وسوس لهما بقوله : « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى » وقوله : « مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » وقَسْمه لهما « إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ » .

(فأخرجهما مما كانا فيه) أى من الجنة أو من النعيم الذى كانا فيه ، فاتصلت العقوبة بالذنب اتصال المسبب بسببه المباشر .

(وقلنا اهبطوا) قال الراغب : الهبوط الانحدار على سبيل القهر ، ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطا ، أو سمى بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه ، أو هو كما يقال هبط من بلد إلى بلد كقوله لبنى إسرائيل : « اهْبِطوا مِصْرًا » والمأمور بالهبوط آدم وزوجه و إبليس ، وهو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف ، ويشهد له قوله : (بعضكم لبعض عدو) إذ العداوة بين الشيطان والإنسان .

(بعضكم لبعض عدو) العدو هو المجاوز حده فى مكروه صاحبه ، وهو يصلح للواحد والجمع ، ومن ثم لم يقل أعداء ، فإبليس عدو لهما ، وهما عدو لإبليس ، أى اهبطوا متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله .

(ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) المستقر الاستقرار والبقاء ، والمتاع الانتفاع الذى يمتد وقته ، والحين مقدار من الزمان قصيرا كان أو طويلا ، أى أن استقراركم فى الأرض وتمتعكم فيها ينتهيان إلى وقت محدود وليسا بدائمين كما زعم إبليس حين وسوس لآدم وسمى الشجرة المنهى عنها شجرة الخلد .

وفى هذا إشارة إلى أن الإخراج من جنة الراحة إلى الأرض للعمل فيها لا للفناء ولا للمعاقبة بالحرمان من التمتع بخيراتها ولا للخلود فيها .

(فتلقى آدم من ربه كلمات) تلقى الكلمات هو أخذها بالقبول والعمل بها حين عُلِّمها أى أن الله ألهمه إياها فأناب إليه بها ، وهى كما روى عن ابن عباس : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وروى عن ابن مسعود أنها : سبحانك اللهم و بحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ، ظلمت نفسى فاغفرلى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت .

(فتاب عليه) التوب الرجوع ، فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية إلى الطاعة ، وإذا وصف به البارى تعالى أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة .

ولا تكون التوبة مقبولة من العبد إلا بالندم على ما كان ، وبترك الذنب الآن ، وبالعزم على ألا يعود إليه فى مستأنف الزمان ، وبرد مظالم العباد ، وبإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه والاعتذار له باللسان .

والخلاصة — أنه تعالى قبل توبته وعاد إليه بفضله ورحمته .

(إنه هو التواب الرحيم) التواب هو الذى يقبل التوبة عن عباده كثيراً ، فمهما اقترف العبد من الذنوب وندم على ما فرط منه وتاب تاب الله عليه ، والرحيم هو الذى يحف عباده برحمته إذا هم أساءوا ورجعوا إليه تائبين ، وقد جمع بين الوصفين (التواب الرحيم) للإشارة إلى عدة الله تعالى للعبد التائب بالإحسان إليه مع العفو عنه والمغفرة له .

وها هنا مسائل ثلاث أطال المفسرون الكلام فيها ، ونحن نوجز فيها القول .

(ا) ما أوردوه فى هبوط آدم وحواء من الجنة ووصف ذلك ، وقد نقلوا أكثره من الإسرائيليات التى لا يصح شىء منها عند النقدة من أهل العلم ورجال الدين .

(ب) خلق حوّاء من ضَلْع آدم أخذا بظاهر قوله تعالى : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا » وقوله : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » ومن حديث أبى هريرة فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم « واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع أعوج » ومما ورد فى سفر التكوين فى التوراة مبينا خلق آدم وحواء .

وجوابنا عن ذلك .

١) أن كثيرا من المفسرين قالوا إن المراد فى الآيتين بقوله (منها) أى من جنسها ليوافق قوله فى سورة الروم « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » إذ المراد دون شك ، أنه خلق أزواجا من جنسكم ، لا أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها .

٢) أن الحديث قد جاء على طريق تمثيل حال المرأة واعوجاج أخلاقها ، باعوجاج الضلوع ، ويؤيد هذا قوله آخر الحديث « وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا » فهو على حد قوله تعالى : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » .

٣) أن ما جاء فى التوراة فى سفر التكوين من تحديد بدء الخليقة بستة آلاف سنة قد أظهرت المشاهدة خطأه ، فقد وجد للإنسان من الآثار ما يدل على أنه أقدم كثيرا مما حددته التوراة ، فاضطر كثير من أهل الكتاب إلى التعسف فى التأويل أو الجحود لما جاء فى تلك الأسفار .

(حـ) عصيان آدم ثم توبته ، مع أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الذنوب ، ولنا فى الجواب عن هذه المسألة ثلاث طرق :

(١) أن المخالفة التى صدرت منه كانت قبل النبوة ، والعصمة إنما تكون عن مخالفة الأوامر بعدها .

(٢) أن الذى وقع منه كان نسيانا ، فسمى عصيانا تعظيا لأمره ، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة .

(٣) أن ذلك من المتشابه كسائر ما جاء فى القصة ، مما لا يمكن حمله على ظاهره ، ويجب تفويض أمره إلى الله كما هو رأى سلف الأمة ، أو هو من باب التمثيل كما رأى الخلف . وقد أجاد الأستاذ الإمام محمد عبده بيانه قال :

إن إخبار الله تعالى الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود فى هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادا فى العلم والعمل لا حد لهما ، تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء

فى الأرض وانتفاعه به فى استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لايتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك ، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والإفساد فى الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون أفراده فيه كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد فى الجنة التى هى الحديقة ما يلذ له من مأكول ومشروب ومشموم ومسموع فى ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسبيل ، ويراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبى القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال كلب فعلت كذاو يراد قبيلة كلب ، ويراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر .

والمعنى على هذا — أن الله تعالى كون النوع البشرى فى أطوار ثلاثة :

(١) طور الطفولة وهو طور لاهم فيه ولا كدر ، بل هو لهو ولعب كأنه فى جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار .

(٢) طور التمييز الناقص ، وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان .

(٣) طور الرشد وهو الذى يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ، ويلتجئ فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا التى منها كل شىء وإليها يرجع الأمر كله .

والإنسان فى أفراده مثال للإنسان فى مجموعه ، فقد كان الإنسان فى ابتداء حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة مقتصرا فى طلب حاجاته على القصد والعدل

متعاونا على دفع ماعساه يصيبه من مزعجات السكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبى .

ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ماليس لهم طاعة للشهوة وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف ، وهذا هو الطور الثانى المعروف فى تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهي إليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

وبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار ، وهو منتهى الكمال ، وهو طور الدين الإلهى والوحى السماوى الذى به كمال الهداية الإنسانية . انتهى كلامه ملخصا .

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

المعنى الجملى

أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط مرتين ، الأولى للإشارة إلى أنهم يهبطون من الجنة إلى دار بلاء وشقاء وتعاد واستقرار فى الأرض إلى حين للتمتع بخيراتها ، والثانية لبيان حالهم من حيث الطاعة والمعصية ، وأنهم ينقسمون فريقين فريق يهتدى بهدى الله الذى أنزله وبلغه للناس على لسان رسله ، وأولئك هم الفائزون برضوانه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وفريق سار فى طريق الضلال وكذب بالآيات ، وأولئك جزاؤهم جهنم خالدين فيها أبدا .

الإيضاح

(قلنا اهبطوا منها جميعاً) هـذا الأمر لبيان أن طور النعيم والراحة قد انتهى وجاء طور العمل ، وفيه طريقان : هدى و إيمان ، وكفر وخسران .

(فإما يأتينكم منى هدى) الهدى الرشد بإرسال رسول بشريعة يأتى بها وكتاب ينزله و يبلغه لـكم ، والخطاب لآدم والمراد ذريته .

(فمن تبع هداى) أى فمن استمسكوا بالشرائع التى أتى بها الرسـل وراعوا ما يحكم العقل بصحته بعد النظر فى الأدلة التى فى الآفاق والأنفس .

(فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الخوف ألم الإنسان مما قد يصيبه من مكروه أو حرمانه من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم به إذا فقد ما يحب .

والمهتدون بهدى الله لا يخافون مما هو آت ولا يحزنون على ما فات ، فإن من سلك سبيل الهدى سهل عليه كل ما أصابه أو فقده ، لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضى ربه و يوجب مثوبته ، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته وأحسن عزاء عما فقده ، فمثله مثل التاجر الذى يكد و يسعى وتنسيه لذة الربح آلام التعب .

والأديان قد حرمت بعض اللذات التى كان فى استطاعة الإنسان أن يتمتع بها ، لضررها إما بالشخص أو بالمجتمع ، فمن تمثلت له المضار التى تعقب اللذة المحرمة وتصور مالها من تأثير فى نفسه أو فى الأمة فرّ منها فرار السليم من الأجرب ، إلى أن المؤمن بالله واليوم الآخر يرى فى انتهاك حرمات الدين مايدنس النفس و يبعدها عن الـكرامة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والخلاصة — أن من جاءه الهدى على لسان رسول بلغه إياه واتبعه فقد فاز بالنجاة و بعد عنه الحزن والخوف يوم الحساب والجزاء والعرض على الملك الديان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) الآيات واحدتها آية وهى العلامة الظاهرة ،

ويراد بها فى الكتاب الكريم كل ما يدل على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته مما أودعه فى الكون ونشاهده فى الأنفس ، كما تطلق على كل قسم من الأقسام التى تتألف منها سور القرآن الكريم ويقف القارئ عندها فى تلاوته ، والعمدة فى معرفة ذلك على التوقيف المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وسميت بذلك لأنها دلائل لفظية على الأحكام والآداب التى شرعها الله لعباده .

والتكذيب كفر سواء كان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول ، أو مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعناد ، وفى مثلهم يقول الله تعالى لنبيه : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » وقد يوجد الكفر بالقلب مع تصديق اللسان كما هى حال المنافقين .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أصحاب النار أى ملازموها بحيث لا يفارقونها ، فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها ، والخلود الدوام .

المعنى — وأما الذين لم يتبعوا هداى وهم الذين كفروا بآياتنا اعتقادا وكذبوا بها لسانا فجزاؤهم الخلود فى النار بسبب جحودهم بها وإنكارهم إياها اتباعا لوسوسة الشيطان . وهذا مقابل قوله قبل : فمن تبع هداى الخ .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بذكر الكتاب وأنه لا ريب فيه ، ثم ثنى بذكر اختلاف الناس فيه : من مؤمن به، وكافر بهديه، ومنافق مذبذب بين ذلك ، ثم طالب الناس بعبادته ، ثم أقام الدليل على أن الكتاب منزل من عند الله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم وحذرهم وأنذرهم ثم حاجَّ الكافرين وجاءهم بأوضح البراهين وهو إحياؤهم مرتين وإماتتهم مرتين ، ثم ذكر خلق السموات والأرض لمنافعهم وخلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، وهنا خاطب الشعوب والأمم التى ظهرت بينها النبوة ، فبدأ بذكر اليهود لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية ، ولأنهم كانوا أشد الناس ضغنا للمؤمنين ، ولأن دخولهم فى الإسلام حجة قوية على النصارى وغيرهم لأنهم أقدم منهم عهداً .

الإيضاح

(يا بنى إسرائيل) إسرائيل لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ومعناه صفى الله ، وقيل الأمير المجاهد ، وبنوه ذريته وهم الأسباط الاثنا عشر .

(اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) الذكر (بضم الذال) بمعنى الحفظ الذى هو ضد النسيان ويكون بالقلب خاصة (وبكسر الذال) يقع على الذكر باللسان وبالقلب — المعنى احفظوا بقلوبكم نعمى بالتفكر فى شكرها باللسان ، وفى هذا إشارة إلى أنهم نسوها ولم يخطروها ببالهم ، ولم تعين الآية هذه النعمة ولكن المراد بها نعمة النبوة التى اصطفاهم بها زمانا طويلا حتى كانوا يسمون شعب الله .

وهذه المكرمة التى أوتوها والنعمة التى اختصوا بها وكانوا مفضلين على الأمم والشعوب تقتضى ذكرها وشكرها ، ومن شكرها الإيمان بكل نبى يرسله الله لهداية البشر ، لكنهم جعلوا هذه النعمة حجة للإعراض عن النبى صلى الله عليه وسلم والازدراء به ، زعما منهم أن فضل الله محصور فيهم ، فلا يبعث الله نبيا إلا منهم .

(وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) سبق أن قلنا : إن عهد الله نوعان عهد نظرى وهو الذى أخـذه على جميع البشر وهو وزن الأمور بميزان العقل والتدبر والنظر الصحيح المؤدى إلى جلاء الحقائق توصلا إلى معرفة الخالق كما يرشد إلى ذلك قوله : « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى » .

وعهد دينى وهو أن يعبدوا الله وحـده لا شريك له ، وأن يعملوا بأحكامه وشرائعه ، وأن يؤمنوا برسله متى قامت الأدلة على صدقهم .

ولو نظر بنو إسرائيل إلى العهد العام أو إلى العهود الخاصة المعروفة فى كتابهم الذى أنزل إليهم ، ومنها (أنه سيرسل إليهم نبيا من بنى إخوتهم « إسماعيل » يقيم شعبا جديدا) لآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذى أنزل معه وكانوا من الفائزين .

أما عهد الله لهم فأن يمكن لهم فى الأرض المقدسة ويرفع من شأنهم ويخفض لهم العيش فيها وينصرهم على أعدائهم الكفرة ويكتب لهم السعادة فى الآخرة .

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد خوف بعضهم من بعض ، ذكر هنا أن الخوف يجب أن يكون من الله وحده فقال :

(وإياى فارهبون) الرهبة خوف مع تحرز من الفعل أى لا ترهبوا ولا تخافوا إلا من بيده مقاليد الأمور كلها وهو الله الذى أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى ، وهو القادر على سلبها منكم ، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها ، ولا يرهب بعضكم بعضا خوف فوت بعض المنافع ونزول بعض الأضرار إذا أنتم اتبعتم الحق وخالفتم غيركم من الرؤساء .

وبعد أن ذكر الوفاء بالعهد العام انتقل إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال:

(وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) أمرهم بالإيمان بالقرآن مع دخوله فى قوله : وأوفوا بعهدى إشارة إلى أن الوفاء به أهم إذ هو العمدة القصوى والمقصد الأول ، وهو قد نزل مصدقا لما جاء فى التوراة وما قبلها من كتب الأنبياء ، فالأوامر التى جاء بها

من الدعوة إلى التوحيد وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى نحو ذلك مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، هى مثل ما دعاكم إليه موسى والأنبياء قبله ، إذ مقصد الجميع واحد وهو تقرير الحق وهداية الخلق وإزالة ما طرأ على العقائد من الضلال .

(ولا تكونوا أول كافر به) أى لا تسارعوا إلى الكفر به ، مع أن الأجدر بكم أن تكونوا أول من يؤمن به ، إذ أنتم تعرفون حقيقته مما معكم من الكتب الإلهية ، وقد كنتم تبشرون بزمانه ، وقد جاء فى كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فكذبه يهودها ، ثم بنو قريظة وبنو النضير ثم خيبر ، ثم تتابعت على ذلك سائر اليهود .

(ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) الآيات هى الأدلة التى أيد الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأعظمها القرآن الكريم أى لا تعرضوا عن التصديق بالنبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتستبدلوا بهدايته هذا الثمن القليل الذى يستفيده الرؤساء من مرءوسيهم من مال وجاه ، ويرجوه المرءوسون من الحظوة باتباع الرؤساء ويخشونه من سطوتهم إذا هم خالفوهم .

وسمى هذا البدل قليلا لأن صاحبه يخسر رضوان الله وتحل به عقوبته فى الدنيا والآخرة ، ويخسر عن الحق ويخسر عقله لإعراضه عن واضح البراهين وبيِّن الآيات.

(وإياى فاتقون) بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن لذات الدنيا متى شغلت عن أعمال الآخرة .

وليس فى هذا تكرار مع قوله : وإياى فارهبون ، لأن استبدال الباطل بالحق إنما كان لاتقاء الرئيس خوف منفعة تفوته من المرءوس ، واتقاء المرءوس خوف غضب الرئيس ، فطلب إليهم أن يتقوا الله وحده ، إذ بيده الخير كله وهو على كل شىء قدير ، وإليه المصير .

(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) اللبس بالفتح الخلط

أى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى لا يتميزا ، ولا تكتموا الحق الذى تعرفونه ، فالنهى الأول عن التغيير ، والنهى الثانى عن الكتمان .

وقد أبانت الآية طريقهم فى الغواية والإغواء ، فقد جاء فى كتبهم :

(١) التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم وتكون لهم عجائب وأفاعيل تدهش الألباب .

(٢) أن الله يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) و بين علامات واضحة له لا لبس فيها ولا اشتباه .

فأخذ الأحبار والرهبان يلبسون على العامة الحق بالباطل ويوهمونهم أن النبى صلى الله عليه وسلم من أولئك الأنبياء الذين وصفوا فى التوراة بالكذب ، ويكتمون ما يعرفونه من أوصاف لا تنطبق إلا عليه ، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين وسبيل دعوتهم إلى الله ، إلى أنهم كانوا يصدونهم عن السبيل القويم وعدم الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم بزيادات يستحدثونها وتقاليد يبتدعونها بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم ويحكمونها فى الدين ويحتجون بأن الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فعلى من بعدهم أن يأخذ بكلامهم دون كلام الأنبياء الذى يصعب علينا فهمه بزعمهم .

لكن هذه المعذرة لم يتقبلها الله منهم ونسب إليهم اللبس والكتمان للحق الذى فى التوراة إلى يومنا هذا ، كما لم يتقبل ممن بعدهم من العلماء فى أى شريعة ودين أن يتركوا كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحجة عينها ، فكل ما يُعلم من كتاب الله يجب علينا أن نعمل به ، وما لا يعلم يسأل عنه أهل الذكر ، ومتى فهمناه وعلمناه عملنا به .

قال فى التيسير : ويجوز صرف الخطاب إلى المسلمين وإلى كل صنف منهم وبيانه أن يقال : أيها السلاطين لا تخلطوا العدل بالجور ، ويأيها القضاة لا تخلطوا الحكم بالرشوة ، وهكذا كل فريق . فهذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل

فهى تتناول من فعل فعلهم ، فمن أخذ رشوة على تغيير حق و إبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه أداؤه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى حكم الآية اه .

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) تقدم أن قلنا إن فى الصلاة إظهار الحاجة إلى المعبود والافتقار إليه بالقول أو بالفعل أو بكليهما ، و إقامتها هى التوجه إلى الله بقلب خاشع والإخلاص له فى الدعاء ، وهذا هو روح الصلاة الذى شرعت لأجله ، أما الصورة فليست مقصودة لذاتها ، ومن ثم اختلفت فى الشرائع على حسب الأديان والأزمان ، ولكن الروح لاتغيير فيه ولا تبديل باختلاف الأنبياء .

والزكاة الطهارة ؛ إذ فيها تطهير المال من الخبث ، والنفس من الشح والبخل .

والخلاصة — أنه بعد أن دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان أمرهم بصالح العمل على الوجه المقبول عند الله ، فطلب إليهم إقامة الصلاة لتطهر نفوسهم كما طلب إليهم إيتاء الزكاة التى هى مظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس لما فيها من بذل المال لمواساة عيال الله وهم الفقراء ، ولما بين الناس من تكافل عام فى هذه الحياة فالغنى فى حاجة إلى الفقير والفقير فى حاجة إلى الغنى كما ورد فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

و بعدئذ أمرهم بالركوع مع الراكعين أى أن يكونوا فى جماعة المسلمين و يصلوا صلاتهم ، وقد حث على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله ، و إيجاد الألفة بين المؤمنين ، ولأنه عند اجتماعهم يتشاورون فى دفع ما ينزل بهم من البأساء أو يجلب لهم السراء ، ومن ثم جاء فى الخبر « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » .

وعبر عن الصلاة بالركوع ليبعدهم عن الصلاة التى كانوا يصلونها قبلا إذ لا ركوع فيها .

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

شرح المفردات

البرّ سعة الخير ومنه البَرّ والبرّيّه للفضاء الواسع ، والصبر حبس النفس على ما تكره ، أو هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم ، كبيرة أى ثقيلة شديدة الوقع ، والخاشعين هم المخبتون الخائفون المتطامنة جوارحهم وقلوبهم لله تعالى ، يظنون أى يستيقنون ، ولقاء الله هو الحشر إليه ، والرجوع إليه هو المجازاة ثواباً أو عقاباً .

المعنى الجملى

الخطاب هنا لبنى إسرائيل كما كان فيما قبله ، وقد وبخهم على اعوجاج سيرتهم وفساد أعمالهم ، وهداهم إلى المخرج من هذه الضلالات ، ذاك أن اليهود كانوا يدّعون الإيمان بكتابهم والعمل به والمحافظة عليه وتلاوته ، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته ، إذ حق تلاوته هو الإيمان به على الوجه الذى يرضاه الله تعالى ، لكن الأحبار والرهبان كانوا الآمرين الناهين لايذكرون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم ولا يعملون بما فيه من الأحكام إذا عارض شهواتهم .

فقد جاء فى التوراة فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم (أنه يقيم من إخوتهم نبيا يقيم الحق) وجاء فى سفر تثنية الاشتراع (١٧) قال لى الرب أحسنوا فيما تكلموا (١٨) سوف أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به (١٩) ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى ، أنا أكون المنتقم منه .

فحرفوا هذه البشارة به وأولوها بما يوافق أهواءهم .

وكانت لهم مواسم دينية تذكرهم بنعم الله عليهم وتكون باعثاً على إقامة الدين والعمل به ، لكن طول العهد جعل القلوب قاسية فخرجت عن تعاليم الدين واتباع الخير وسلوك طريق الرشاد ، واستمسك الأحبار بالظواهر وقلدهم فى ذلك العامة ، فما كانوا يعرفون من الدين إلا العبادات العامة والمراسم الدينية ، وما عدا ذلك مما لا فائدة لهم فيه ولا هوى، يلجئون فيه إلى التأويل والتحريف حتى لا يصادم أهواءهم وشهواتهم .

الإيضاح

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) الخطاب موجه إلى حملة الكتاب من الأحبار والرهبان فقد روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى أحبار المدينة ، كانوا يأمرون من نصحوه سرا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به ، وقال السُّدى : إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم يفعلون ما ينهون عنه .

والمراد من النسيان هنا الترك ، لأن من شأن الإنسان ألا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة ، وعبر به عنه للمبالغة فى عدم المبالاة والغفلة عما ينبغى أن يفعله ، أى إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم .

ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من التوبيخ والتأنيب الذى ليس بعده زيادة لمستزيد ، فإن الآمر بما لا يأتمر به تكون الحجة عليه قائمة بلسانه .

(وأنتم تتلون الكتاب) فتعرفون منه ما لا يعرفه من تأمرونهم باتباعه ، والفرق عظيم بين من يفعل وينقصه العلم بفوائد ما يفعل ، ومن يترك وهو عليم بمزايا ما يترك .

(أفلا تعقلون) أى أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه ويحذركم وخامة

عاقبته ، فإن من عنده أدنى مُسْكة من العقل لا يدعى كمال العلم بالكتاب ، ويقوم بالإرشاد إلى هديه ، ويبين للناس سبيل السعادة باتباعه ، ثم هو بعدُ لا يعمل به ولا يستمسك بأوامره ونواهيه .

وهذا الخطاب وإن كان موجها إلى اليهود فهو عبرة لغيرهم ، فلتنظر كل أمة أفرادا وجماعات فى أحوالها ، ثم لتحذر أن يكون حالها كحال أولئك القوم فيكون حكمها عند الله حكمهم ، فالجزاء إنما هو على أعمال القلوب والجوارح لا على صنف خاص من الشعوب والأفراد .

وبعد أن بين سبحانه سوء حالهم وذكر أن العقل لم ينفعهم والكتاب لم يذكرهم ، أرشدهم إلى الطريق المثلى وهى الاستعانة بالصبر والصلاة فقال :

(واستعينوا بالصبر والصلاة) الصبر الحقيقى إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة التى تميل إليها النفس وعمل أنواع الطاعات التى تشق عليها ، والتفكر فى أن المصايب بقضاء الله وقدره ، فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، والاستعانة به تكون باتباع الأوامر واجتناب النواهى بقمع النفس عن شهواتها وحرمانها لذاتها .

والاستعانة بالصلاة لما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، ولما فيها من مراقبة الله فى السر والنجوى ، وناهيك بعبادة يناجى فيها العبد ربه فى اليوم خمس مرات ، وقد روى أحمد رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وروى أن ابن عباس نعيت له بنت وهو فى سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

(وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) أى وإن الصلاة لشاقة صعبة الاحتمال إلا على المخبتين لله الخائفين من شديد عقابه ، وإنما لم تثقل على هؤلاء لأنهم مستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يشعرون بشىء من المتاعب والمشاق ، ومن ثم قال صلى الله

عليه وسلم « وقرة عينى فى الصلاة » لأن اشتغاله بها كان راحة له ، وكان غيرها من أعمال الدنيا تعبا له .

ولأنهم مترقبون ما ادخروا من الثواب فتهون عليهم المشاق ، ومن ثم قيل للربيع ابن خيثم وقد أطال صلاته « أتعبت نفسك ، قال راحتها أطلب » وقيل : من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية . ثم وصف الخاشعين بأوصاف تقربهم إلى ربهم وتدعوهم للأخبات إليه . فقال :

(الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) أى لاتثقل الصلاة على الخاشعين الذين يتوقعون لقاء ربهم يوم الحساب والجزاء ، وأنهم راجعون إليه بعد البعث فيجازيهم بما قدموا من صالح العمل .

وعبر بالظن للاشارة إلى أن من ظن اللقاء لا تشق عليه الصلاة ، فما ظنك بمن يتيقنه ، ومن ثم كان الاكتفاء بالظن أبلغ فى التقريع والتوبيخ ، فكأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم لم يصل إيمانهم بكتابهم إلى درجة الظن الذى يأخذ صاحبه بالأحوط فى أعماله .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

شرح المفردات

الشفاعة من الشفع ضد الوتر ، لأن الشفيع ينضم إلى الطالب فى تحصيل مايطلب فيصير معه شفعا بعد أن كان وترا ، والعدل الفدية ، وأصل العدل (بالفتح) ما يساوى الشىء قيمة وقدراً وإن لم يكن من جنسه ، (وبالكسر) المساوى فى الجنس والحجم ، والنصرة أخص من المعونة لأنها مختصة بدفع الضرر .

المعنى الجملى

كرر تذكيرهم بالنعم لكمال غفلتهم عما يجب عليهم من شكرها ، وقد ذكرت فيما سبق مقترنة بوعد الله لهم بالنصر على الأعداء وسكنى الأرض المقدسة ، واقترنت هنا بالوعيد واتقاء عقاب الله فى ذلك اليوم الشديد الهول الذى لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، فكأنه قد قيل لهم إن لم تطيعوا الله لنعمه السالفة فأطيعوه للخوف من عقابه اللاحق .

وفى هذا التقريع والتوبيخ ما يدل على قساوة قلوبهم ، فإن من شعر بقدر نفسه إذا خلا ونفسه وتذكر أنه ألمّ بنقيصة يتألم ولم ير من اللائق به أن يدنسها مرة أخرى برذيلة .

الإيضاح

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) هـذا تأكيد لما تقدم وتمهيد لما عطفه عليه من التذكير بالتفضيل الذى هو من أجل النعم .

(وأنى فضلتكم على العالمين) أى أعطيتكم الفضـل والزيادة على غيركم من الشعوب ، حتى الأمم ذات الحضارة والمدنية كالمصريين وسكان الأراضى المقدسة .

وقد ناداهم باسم أبيهم لأنه منشأ فخارهم وأصل عزهم ، وأسند النعمة والفضل إليهم جميعا لشمولها إياهم ، والتفضيل إنما أتاهم لتمسكهم بالفضائل وتركهم للرذائل ، إذ من يرى نفسه مفضلا شريفا يترفع عن الدنايا .

وذكرهم بهذا الفضل لينبههم إلى أن الذى فضلهم على غيرهم له أن يفضل غيرهم كمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، وإلى أنهم أجدر من جميع الشعوب بالتأمل فيما أوتيه النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات ، فإن المفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل عليه .

وهذا الفضل إن كان بكثرة الأنبياء فلا مزاحم لهم فيه ، ولا تقتضى هذه الفضيلة

أن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ولا تمنع أن يفضلهم أخس الشعوب إذا انحرفوا عن جادة الحق وتركوا سنة أنبيائهم واهتدى بهديها غيرهم ، وإن كان بالقرب من الله باتباع شرائعه ، فذلك إنما يتحقق فى أولئك الأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم ومن تبعهم بإحسان ماداموا على الاستقامة وسلكوا الطريق الذى استحقوا به التفضيل .

(واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) أى واخشوا يوما يقع فيه من الأهوال مالا قدرة لكم على دفعه ، ولا منجاة لكم منه إلا بتقوى الله فى السر والعلن ، يوم لا تحمل نفس أوزار نفس أخرى كما قال تعالى : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » وقال : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » وقال : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ » وقال : « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(ولا يقبل منها شفاعة) أى أنها إذا جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها .

(ولا يؤخذ منها عدل) أى ولا يؤخذ منها فداء إن هى استطاعت أن تأتى بذلك .

(ولا هم ينصرون) أى يمنعون من العذاب .

والخلاصة — أن ذلك يوم تتقطع فيه الأسباب ، وتبطل منفعة الأنساب ، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين ، عند الأمراء والسلاطين ، أو بأنصار ينصرونه بالحق والباطل على سواه ، وتضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص فى العمل قبل حلول الأجل ، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله .

وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا ، فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب بفداء يدفع ، أو بشفاعة بعض المقربين إلى الحاكم فيغير رأيه وينقض ما عزم عليه .

فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون أنه لاينفع فى ذلك اليوم إلا مرضاة الله بالعمل الصالح والإيمان الذى يبلغ قرارة النفس ويتجلى فى أعمال الجوارح .

[تنبيه] : هناك مسألة كثر خوض الناس فيها وأطالوا الجدل والأخذ والرد ، وهى مسألة الشفاعة العظمى شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لأمته يوم القيامة، وهاك بيانها :

جاء فى القرآن الكريم آيات تفيد نفيها مطلقا ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف يوم القيامة « لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » وآيات تفيد ثبوتها متى أذن الله ، ومن ذلك قوله : « يَوْمَ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » .

من أجل هذا افترق العلماء فرقتين : أولاهما تثبت الشفاعة وتحمل ما جاء من الآيات فى نفيها مطلقا على ما جاء منها مقيداً فلا تكون شفاعة إلا إذا أذن الله ، وثانيتهما تنفيها مطلقاً وتقول إن معنى (إلا بإذنه) هنا النفى ، وهذا أسلوب معروف لدى العرب فى النفى القطعى كقوله : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » وقوله : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » .

وإذا فليس فى القرآن الكريم نص قاطع فى ثبوتها ، ولكن جاء فى السنة الصحيحة ما يؤيد وقوعها كقوله صلى الله عليه وسلم « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ، فمن كذب بها لم ينلها » .

فيجب علينا أن نحدد معناها والمراد منها ، وهل تكون فى الآخرة كما هى فى الدنيا .

الشفاعة المعروفة فى دنيانا أن يحمل الشفيع من يشفع عنده على فعلٍ أو تركٍ كان يريد غيره ، فلا تتحقق فائدة الشفاعة إلا بترك ما أراده المشفوع لديه وفسخ ما عزم عليه لأجل الشفيع ، والحاكم العادل لا يقبل الشفاعة بهذا المعنى ، ولكن يقبلها الحاكم الظالم المستبد فيقضى بما يعلم أنه ظلم وأن العدل خلافه ، ويفضل ارتباطه بأواصر القربى أو الصداقة للشافع على العدالة ، ومثل هذا محال فى الآخرة

على المولى جل وعلا ، لأن إرادته على حسب علمه الأزلى الذى لا تغيير فيه ولا تبديل ، وإذاً فما ورد من الأحاديث يكون من المتشابه الذى يرى السلف تفويض الأمر فيه إلى الله دون أن نحيط بحقيقته ونكشف المراد منه وننزه الله عن الشفاعة التى نشاهد مثالها فى الحياة الدنيا ، وغاية ما نستطيع أن نقول : إنها مزية يختص الله بها من يشاء من عباده عبر عنها بلفظ (الشفاعة) ولا ندرك حقيقتها

ويرى المتأخرون ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنها دعاء يدعوه النبى صلى الله عليه وسلم فيستجيبه المولى جل وعلا كما يفهم من رواية الصحيحين وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم يسجد يوم القيامة ويثنى على الله بثناء يُلْهَمُه يومئذ فيقال له ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، وليس فى الشفاعة بهذا المعنى رجوع المولى عن إرادته لأجل الشافع ، وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ ما أراده الله أزلا عقب دعائه ، فليس فيها ما يسدّ نهم المغرورين الذين يتهاونون فى أوامر الدين ونواهيه اعتماداً منهم على الشفاعة كما قال : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ » .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

المعنى الجملى

فصل فى هذه الآية نعمة مما أنعم به على هذا الشعب العظيم ، ذكر فيها ما حل بهم من العذاب والبلاء جزاء ما صنعوا من جرائم وارتكبوا من آثام ، ثم ما كان من لطف الله بهم إذ رفع عنهم البلاء ليتوبوا ويعرفوا قدر نعمته عليهم كما قال : « وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

وقد امتن على اليهود الذين كانوا عصر التنزيل بنعمة كانت لآبائهم ، لأن الإنعام على أمة إنعام شامل لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك ومن لم يصبه ، لما يكون له من الأثر فى مجموع الأفراد يرثه الخلف عن السلف ، فصنوف البلاء التى ذكر بها اليهود فى القرآن كانت للشعب من جرّاء جرائم وقعت من مجموعه .

وقد روى المؤرخون أن أول من دخل مصر من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام وانضم إليه إخوته بعد وتكاثر نسلهم حتى بلغوا فى مدى أربعمائة سنة نحو ستمائة ألف حين خرجوا من مصر باضطهاد فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تبسط اليهود فى البلاد ومزاحمتهم للمصريين ، فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال فى مختلف المهن والصناعات ، وهم مع ذلك يزدادون نسلا ، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم لا يَشْرَكون المصريين فى شىء ولا يندمجون فى غمارهم ، إلى مالهم من أنانية وإباء وترفع على سواهم ، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فهال المصريين ما رأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ويستأثروا بخيراتها وينتزعوها من بين أيديهم ، وهم ذلك الشعب النشيط المجد العامل المفكر ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء بناتهم ، فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلى حين ولادته .

والعبرة من هذا القصص أنه كما أنعم على اليهود ثم اجترحوا الآثام فعاقبهم الله بصنوف البلاء ثم تاب عليهم وأنجاهم ، أنعم على الأمة الإسلامية بضروب من النعم ، فقد كانوا أعداء فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا ، وكانوا مستضعفين فى الأرض فمكن لهم وأورثهم أرض الشعوب القوية وجعل لهم فيها السلطان والقوة وجعلهم أمة وسطا لا تفريط لديها ولا إفراط ليكونوا شهداء على من أفرطوا أو قصروا .

ثم لما كفروا بهذه النعم أذاقهم الله ألواناً من العذاب على يد التتار فى بغداد ، وفى الحروب الصليبية إذ جاس الغربيون خلال الديار الإسلامية ، ولا يزالون يتنقصون

بلادهم من أطرافها ويصبون عليهم العذاب وهم لاهون ساهون ، وكلما حلت بهم كارثة أو أصابتهم جائحة أحالوا الأمر فيها على القضاء والقدر دون أن يتعرفوا أسبابها ويبادروا إلى علاجها ويكونوا يدا واحدة على رفع ما يحل بهم من النكبات ويدهمهم من الويلات .

الإيضاح

(وإذ نجيناكم من آل فرعون) النجو المكان العالى من الأرض ، لأن من صار إليه يخلص وينجو ، ثم سمى كل فائز ناجيا لخروجه من الضيق إلى السعة ، والآل من آل يئول بمعنى رجع لأنه يرجع إليك فى قرابة أو رأى أو مذهب ، ولا يضاف إلا لذوى القدر والخطر ، وفرعون لقب لمن ملك مصر قبل البطالسة ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، وخاقان لملك الترك ، وتُبّع لملك اليمن ، والنجاشى لملك الحبشة .

أى اذكروا وقت تنجيتنا إياكم أى تنجية آبائكم ، وتنجيتهم تنجية لأعقابهم ، وهو استعمال تعهده العرب فى كلامها ، يقولون قتلناكم يوم عكاظ أى قتل آباؤنا آباءكم .

(يسومونكم سوء العذاب) سامه كلفه ، والسوء السيء القبيح ، وسوء العذاب أفظعه وأشده أى يكلفونكم ما يسوءكم ويذلكم من العذاب ، ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى يقتلون الذكور ويستبقون البنات إذلالا لكم حتى ينقرض شعبكم من البلاد .

(وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) البلاء الاختبار والامتحان ، وهو تارة يكون بما يسر ليشكر العبد ربه ، وتارة بما يضر ليصبر ، وحينا بهما ليرغب ويرهب ، أى وفى ذلكم العذاب والتنجية منه امتحان عظيم من ربكم كما قال تعالى :

« وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ » وقوله : من ربكم أى من جهته تعالى بتسليطهم عليكم وبعث موسى وتوفيقه لخلاصكم .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

شرح المفردات

الفرق الفصل بين الشيئين ، والبحر هو بحر القلزم فرقه الله اثنتى عشرة فرقة بعدد أسباط بنى إسرائيل ، والسبط ولد الولد ، وهو من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب ، والعفو محو الجريمة بالتوبة ، والكتاب التوراة ، والفرقان الآيات التى أيد الله بها موسى ودلت على صدق نبوته وبها يفرق بين الحق والباطل ، والشكر لمن فوقك بطاعته ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان إليه .

المعنى الجملى

فى الآية الأولى تفصيل لمجمل ما ذكر فى الآية السالفة من الإنجاء وتصوير لحصوله وعظيم هوله وكونه من خوارق العادات ، وفى تضاعيف ذلك ذكر لهم نعمة أخرى وهى هلاك عدوهم فرعون وقومه وهم ينظرون ، ثم ذكر النعمة التى تلتها وهى العدة بإعطاء التوراة وكفرهم بها باتخاذهم عجلا من ذهب وعبادتهم إياه ، ثم عفوه عنهم بعد ذلك ، ثم قفى على ذلك بذكر إيتائهم الكتاب وهى المنة الكبرى مع الآيات التى أيد بها موسى لتصديق نبوته .

روى المؤرخون أن الله لما أرسل موسى إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الإيمان به ويطلب إليهم إطلاق الشعب الإسرائيلى وترك تعذيبه والعسف به ، زاد فرعون فى تعذيبهم وسامهم الخسف وشدد عليهم النكال والتعذيب .

ويؤيد هذا ما جاء فى سفر الخروج من التوراة ، أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه سيجعل قلب فرعون قاسيا على بنى إسرائيل ويزيد فى النكال بهم ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته .

فبعد أن دعاه موسى إلى الإيمان زاد ظلما وعتوا ، فأمر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل فى الأعمال الشاقة أن يزيدوا فى القسوة عليهم ، وأن يمنعوهم التبن الذى كانوا يعطونهم إياه لعمل اللَّبِن (الطوب) ويكلفوهم أن يجمعوه ويعملوا كل ما يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شىء .

فأعطى الله موسى وأخاه هرون الآيات ، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهرون ، ورأى من الآيات ما رأى سمح بخروج بنى إسرائيل بل طردهم طرداً .

وفى سفر الخروج أنهم خرجوا فى شهر أبيب بعد أن أقاموا بمصر ثلاثين وأربعمائة سنة من عهد يوسف عليه السلام ، ثم أتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه .

وقد كان فَرْق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التى يظهرها الله تعالى على أيديهم لترشد الناس إلى أن السنن والنواميس الكونية لا تحكم على واضعها ومدبرها ، بل هو الحاكم المتصرف فيها ، وهى أيضا سنة أخرى فى الكون يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده .

وزعم بعض الناس أن عبور بنى إسرائيل البحر كان وقت الجزر ، وفى بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) رقارق يتيسر للانسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديدا ، وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا الماء الرقارق فرقين

عظيمين ممتدين كالطود العظيم ، يرشد إلى ذلك قوله : « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ » ولم يقل فرقنا لكم البحر .

وقوله : « فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » تشبيه معروف معهود مثله فى مقام المبالغة كقوله : « وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ » ألا ترى أن الأمواج والسفن الجوارى لاتكون كشواهق الجبال ، لكنه يراد بمثل هذا التعبير زيادة البيان وإرادة التأثير فى نفس السامع .

ولما أتبعهم فرعون وجنوده ورآهم قد عبروا البحر مشى إثرهم ، وكان المدّ قد بدأ ولم يتم خروج بنى إسرائيل إلا وقد علا المد وطغى حتى أغرق المصريين جميعا ، وتحققت نعمة الله على بنى إسرائيل وتم لهم التوفيق ولعدوهم الخذلان ، ونعم الله بغير طريق المعجزات أتم وأكثر ، فليس بلازم أن نجعل الامتنان فى كونه معجزة لموسى عليه السلام اهـ .

ومثل هذا التأويل ليس بضائر إذا كان أربابه يثبتون صدور خوارق العادات على يد الأنبياء تأييدا من الله لهم ، أما إذا أنكروها فلا حاجة إلى الكلام معهم ، إذ لابد أن نثبت لهم قدرة الله وإرادته ، ثم نثبت لهم إمكان الوحى وإرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات .

الإيضاح

(وإذ فرقنا بكم البحر) أى واذكروا من نعمتنا عليكم نعمة فرق البحر بكم وجعلنا لكم فيه طرقا تسلكونها حين هربكم من فرعون .

(فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) أى فأنجيناكم من الغرق وأخرجناكم إلى الشاطئ الآخر ، وأغرقنا فرعون ومن معه حين عبروا وراءكم ، وأنتم تشاهدون ذلك بأبصاركم ولا تشكون فى حصوله ، ولولا ذلك لكان لكم وجه للريبة

والشك فى وقوعه ، والفائدة من قوله : (وأنتم تنظرون) بيان تمام النعمة ، فإن هلاك العدو نعمة ، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى فيها سرور لا يقدر قدره .

(وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أى واذكروا نعمة أخرى كفرتم بها وظلمتم أنفسكم ، ذاك أنهم بعد أن اجتازوا البحر سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من ربهم ، فواعده ربه أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا لذلك ، يقولون إنه ذو القعدة وعشر ذى الحجة ، فاستبطئوه واتخذوا عجلا من ذهب له خوار فعبدوه وظلموا أنفسهم بإشراكهم ووضعهم للشىء فى غير موضعه بعبادة العجل بدل عبادة خالقهم وخالقه .

وفى ذكر هذا تعجيب من حالهم ، فإن مواعدة الله موسى بإنزال التوراة إليه نعمة وفضيلة لبنى إسرائيل قابلوها بأقبح أنواع الكفر والجهل .

(ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون) أى ثم محونا تلك الجريمة بقبول التوبة ولم نعاجلكم بالإهلاك ، بل أمهلناكم حتى جاءكم موسى وأخبركم بكفارة ذنوبكم ، ليعدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ، فإن الأنعام يوجب الشكر على النعم .

(وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) أى واذكروا نعمة إيتاء التوراة والآيات التى أيدنا بها موسى ، لتهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما تحويه من الشرائع ليعُدَّكم للاسترشاد بها حتى لا تقعوا فى وثنية أخرى .

وإن من كمال الاستعداد لفهم الكتاب أن تعرفوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، دليل على صحة نبوته ، فتؤمنوا به وتهتدوا بهديه وتتبعوا سبيل الرشاد الذى سلكه .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

شرح المفردات

برأه : ذرأه وأوجده ، والصاعقة نارمحرقة تنزل من السماء ، وسببها اتحاد كهربائية السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو اتحادها مع كهربائية الأرض السالبة ، بعثناكم أى أكثرنا نسلكم ، والمن مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس ، والسلوى السُّمانى (السمان) الطائر المعروف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أنواعا من النعم التى آتاها بنى إسرائيل كلها مصدر فخار لهم ، ولها تهتز أعطافهم خيلاء وكبرا لما فيها من الشهادة بعناية الله بهم ، فبين فى أولاها كبرى سيئاتهم التى بها كفروا أنعم ربهم وهى اتخاذهم العجل إلها ، ثم ختمها بذكر العفو عنهم ، ثم قفى على ذلك بذكر سيئة أخرى لهم ابتدعوها تعنتا وتجبرا وطغيانا وهى طلبهم من موسى أن يريهم الله عيانا حتى يؤمنوا به فأخذتهم الصاعقة وهم يرون ذلك رأى العين ، ثم أردف ذلك بذكر نعمتين أخريين

كفروا بهما ، أولاهما تظليل الغمام لهم فى التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة ، و إنزال المن والسلوى عليهم مدة أربعين سنة .

وفى ذكر النعمة يتخللها سوق ما يفرط من أصحابها من السيئات ما يجعل النفوس قلقة مضطربة يتجاذبها عاملان : عامل الاعتراف لها بالشرف ، وعامل رميها بالظلم والسرف ، وهذا مما يورث فى النفوس المخاوف وتملكها منه الوساوس .

الإيضاح

(و إذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) أى واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بنى إسرائيل وغيرهم من العظات ، قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه : يا قوم إنكم باتخاذكم العجل إلها قد أضررتم بأنفسكم وأنقصتم مالها من الأجر والثواب عند ربكم لو أنكم أقمتم على عهدى واتبعتم شريعتى ، وقد فصلت هذه القصة فى سورتى الأعراف وطه .

(فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) أى فاعزموا على التوبة إلى من خلقكم وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة ، وفى قوله إلى بارئكم إيماء إلى أنهم بلغوا غاية الجهل ، إذ تركوا عبادة البارئ وعبدوا أغبى الحيوان وهو البقر ، وليقتل البريء منكم المجرم ، و إنما جعلهم أنفسهم للاشارة إلى أن المؤمنين إخوة ، فأخو الرجل كأنه نفسه كما قال تعالى : « وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » أى لا تغتابوا إخوانكم من المسلمين .

وقصة القتل مذكورة فى التوراة التى يتدارسونها إلى اليوم ، ففيها — دعا موسى : مَنْ للربِّ فإلَيَّ ، فأجابه بنو لاوى فأمرهم أن يأخذوا السيوف و يقتل بعضهم بعضا ففعلوا ، فقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل ، والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له .

(ذلكم خير لكم عند بارئكم) أى ما ذكر من التوبة والقتل أنفع لكم

عند الله من العصيان والإصرار على الذنوب لما فيه من العذاب ، إذ أن القتل يطهركم من الرجس الذى دنستم به أنفسكم ويجعلكم أهلا للثواب .

(فتاب عليكم) أى فعلتم ما أمركم به موسى فقبل توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم .

(إنه هو التواب الرحيم) أى إنه هو الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويقبلها منهم ، وهو الرحيم بمن ينيب إليه ويرجع ، ولولا ذلك لعجل بإهلاككم على ما اجترحتم من عظيم الآثام .

(وإذ قلتم يا موسى لَنْ نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) أى واذكروا قول السبعين من أسلافكم الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور للاعتذار عن عبادة العجل : لن نصدقك فى قولك إن هذا كتاب الله ، وأنك سمعت كلامه ، وأن الله أمر بقبوله والعمل به حتى نرى الله عياناً لا ساتر بيننا وبينه ، فيكون كالجهر فى الوضوح « والجهر فى المسموعات كالمعاينة فى المبصرات » .

(فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) أى فأخذت الصاعقة من قال ذلك ، والباقون ينظرون بأعينهم ، وقد فصل ذلك فى سورة الأعراف ، وفى التوراة أن طائفة منهم قالوا لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا ، وشاع ذلك فى بنى إسرائيل وقالوا لموسى بعد موت هارون إن نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم وإسحاق فتعم الشعب جميعه ، وأنت لست أفضل منه ، فلا يحق لك أن تسودنا بلا مزية ، وإنا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين

وهكذا كان حال بنى إسرائيل مع موسى يتمردون ويعاندون ، وسوط العذاب يصب عليهم صبا ، فأصيبوا بالأوبئة وأنواع الأمراض وسلطت عليهم هوام الأرض وحشراتها حتى فتكت بالعدد العديد والخلق الكثير ، فليس ببدع منهم أن يجحدوا دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ويعاندوها .

(ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) يرى بعض المفسرين أن الله

أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ، وكانت تلك الموتة لهم كالسكتة القلبية لغيرهم ، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل أى أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظن أنهم سينقرضون بارك الله فى نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التى تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها .

وإنما قص الله علينا هـذا القصص ووجهه إلى من كان من اليهود فى عصر التنزيل لبيان وحدة الأمة ، وأن ما يبلوها به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما هو لمعنى فيها يسوغ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع منه ، ليعلم الناس أن الأمم متكافلة ، سعادة الفرد منها مرتبطة بسعادة سائر الأفراد ، وشقاؤه بشقائهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب فى الأمة وإن لم يفعلها هو كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »

وفى هذا التكافل رقىّ الأمة وتقدمها فى المدنية والحضارة ، إذ يحملها على التعاون فى البأساء والضراء فتحوز قصب السبق بين الأمم .

(وظللنا عليكم الغمام) ذلك أنهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر وقعوا فى صحراء فأصابهم حر شديد فشكوا إلى موسى فأرسل الله إليهم الغمام يظللهم حتى دخلوا أرض الميعاد .

(وأنزلنا عليكم المن والسلوى) ما منحه الله لعباده يسمى إيجاده إنزالا كما جاء فى قوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ » وقد قالوا إن المن كان ينزل عليهم نزول الضباب من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وتأتيهم السُّمَانَى فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه إلى الغد .

(كلوا من طيبات ما رزقناكم) أى وقلنا لهم كلوا من ذلك الرزق الطيب ، وفى سفر الخروج — أنهم أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل ، وكان لهم بدل الخبز إذ كانوا محرومين من البقول والْخُضَر .

(وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى فكفروا تلك النعم الجزيلة ، وما عاد ضرر ذلك إلا عليهم باستيجابهم عذابى وانقطاع ذلك الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مئونة ولا مشقة .

وفى هذا إيماء إلى أن كل ما يطلبه الله من عباده فإنما نفعه لهم ، وما ينهاهم عنه فإنما ذلك لدفع ضر يقع عليهم ، وقد جاء فى الحديث القدسى « فكل عمل ابن آدم له أو عليه » وهو بمعنى قوله : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

شرح المفردات

القرية لغة : مجتمع الناس ومسكن النمل ثم غلب استعمالها فى البلاد الصغيرة ، وليس ذلك بالمراد هنا بل المراد المدينة الكبيرة لأن الرغد لا يتسنى إلا فيها ، والرغد الهنىء ذو السعة ، والباب هو أحد أبواب بيت المقدس ويدعى الآن (باب حِطّة) ، وسجدا أى ناكسى الرءوس. والمحسن من فعل ما يجمل فى نظر العقل ويحمد فى لسان الشرع ، ويقال بدلت قولا غير الذى قيل. أى جئت بذلك القول مكان القول الأول ، والرجز العذاب .

المعنى الجملى

ذكر الله فى هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات ، فقد أمرهم أن يدخلوا قرية من القرى خاشعين لله فعصى بعضهم وخالف أمر ربه فأنزل عليهم عذابا من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصى واقترفوه من الآثام .

الإيضاح

(وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) لم يعين الكتاب الكريم هذه القرية فلا حاجة إلى تعيينها، وهم قد دخلوا بلادا كثيرة وإن كان المروى عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم أنها بيت المقدس.

(فكلوا منها حيث شئتم رغداً) أى فكلوا منها أكلا هنيئاً ذا سعة فى أى مكان شئتم.

(وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) أى وادخلوا باب حطة خشّعا ناكسى الرءوس تواضعا لله، وقد يكون المعنى إذا دخلتم الباب فاسجدوا لله شكرا على ما أنعم عليكم إذ أخرجكم من التيه ونصركم على عدوكم وأعادكم إلى ما تحبون، وقولوا نسألك ربنا أن تحط عنا ذنوبنا وخطايانا التى من أهمها كفران النعم.

(نغفر لكم خطاياكم) أى إذا فعلتم ما ذكر استجبنا دعاءكم وكفرنا خطاياكم.

(وسنزيد المحسنين) أى وسنزيد المحسنين ثوابا من فضلنا، وقد أمرهم بشيئين عمل يسير وقول صغير ووعدهم بغفران السيئات وزيادة الحسنات.

(فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) أى خالفوا الأمر ولم يتبعوه، وجعل المخالفة تبديلا إشارة إلى أن الذى يؤمر بالشىء فيخالفه كأنه أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بغيره، وليس المراد أنهم أمروا بحركة يأتونها وكلمة يقولونها على سبيل التعبد وجعل ذلك سببا لغفران الذنوب عنهم، فقالوا غيرها وخالفوا الأمر وكانوا من الفاسقين، فما أسهل الكلام على الناس يحركون به ألسنتهم، وإنما يعصى العاصى ربه إذا كلف ما يثقل عليه، وحمل غير ما اعتاد، لما فى ذلك من ترك النفس ما ألفت، واستيحاشها من غير ما عرفت.

(فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) لم يعين الكتاب هذا الرجز فنتركه مبهما، وإن كان كثير من المفسرين قالوا إنه الطاعون، وقد ابتلى

الله بنى إسرائيل بضروب من النقم عقب كل نوع من أنواع الفسوق والظلم ، فأصيبوا بالطاعون كثيراً وساط عليهم أعداؤهم ، وقوله بما كانوا يفسقون أى بسبب تكرار فسقهم وعصيانهم ومخالفتهم أوامر دينهم .

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ، فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

شرح المفردات

استسقى : طلب السقيا عند عدم الماء أو قلّته ، قال أبو طالب يمدح النبى صلى الله عليه وسلم .

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهه ثِمالُ اليتامَى عصمةٌ للأرامل

والانفجار والانبجاس والسكب بمعنى ، والمشرب مكان الشرب ، والعثْىُ مجاوزة الحد فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الفساد .

المعنى الجملى

ذكر الله فى هذه الآية نعمة أخرى آتاها بنى إسرائيل فكفروا بها ، ذاك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته .

وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر ويصارحونه بالندم على ما فعلوا ، فقد روى أنهم قالوا من لنا بحر الشمس ؟ فظلل عليهم الغمام ، وقالوا من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا من لنا بالماء ؟ فأمر موسى بضرب الحجر .

الإيضاح

(وإذ استسقى موسى لقومه) أى طلب لهم السُّقْيا من الله تعالى بأن يسعفهم بماء يكفيهم حاجاتهم فى هذه الصحراء المحرقة .

(فقلنا اضرب بعصاك الحجر) أى فأجبناه إلى ما طلب وأوحينا إليه أن اضرب الحجر بعصاك ، وقد أمره أن يضرب بعصاه التى ضرب بها البحر حجراً من أحجار الصحراء ، قال الحسن لم يكن حجراً معيناً ، بل أى حجر ضربه انفجر منه الماء ، وهذا أظهر فى حجة موسى عليه السلام وأدلّ على قدرة الله تعالى وقد سماه فى سفر الخروج الصخرة .

(فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً) أى فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر عدد الأسباط ، فاختُص كل منهم بعين حتى لاتقع بينهم الشحناء ، كما يرشد إلى ذلك قوله .

(قد علم كل أناس مشربهم) أى قد صار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ، لا يتعداه إلى مشرب غيره .

قال النطاسى البارع المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل فى كتابه (الإسلام والطب الحديث) ما خلاصته :

إن الله تعالى كان قادراً على تفجير الماء وفلق البحر بلا ضرب عصا ، ولكنه جلّت قدرته أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ليسعوا فى الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة .

إلى أنه تعالى خلق الإنسان محدود الإدراك والحواس ، لا يفهم إلا ما كان فى متناول يده ويقع تحت إدراكه وحسه ، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد فى رده إلى ما يعرف ، فإذا لم يستقم له ذلك وقف حائراً مدهوشاً ، ولا سيما إذا تكرر ذلك أمامه ، فكان من لطف الله بعباده أن تظهر المعجزات على يد الأنبياء على طريق التدرج حتى لا تصطدم بها عقول معاصريها دفعة واحدة .

حكى القرآن فى معجزات عيسى عليه السلام قوله « أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ »

كان الله قديراً على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين سواء كان فى شكل الطير أم لم يكن ، وكذلك لم يكن هناك من داع للنفخ لأن طريق القدرة « كُنْ فَيَكُونُ »

ولكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرج ، لأن الطين إذا كان على شكل الطير يشتبه بالطير الحقيقى ولا يكون بينهما فارق إلا بالحياة ، وعملية النفخ تجعل الرائى ينتظر تغييرا فى الجسم كما يحدث ذلك فى الكرة ونحوها إذا نفخ فيها ، فإذا وجدت الروح فى هذا الهيكل الطينى تكون حدة الصدمة قد خفت لأن النفس كانت ترقب ما حدث ، وجميع المقدمات لا دخل لها مطلقا فى وجود الحياة والروح .

وكذلك خلق عيسى من نطفة الأم فقط ، مع أن الحيوان فى عالمنا لا يخلق إلا من نطفتى الأب والأم ، ونظام الكائنات يجرى على سنن واحد إلا حيث يريد الله .

وقد لطف الله بمريم فأراها ملكا فى صورة بشر ، وقال لها سأهب لك غلاما زكياً ، فأجابته « أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ » فرؤية الملك والأحوال التى أحاطت به أوجدت عندها بعض الشك فى أنها ربما حملت بطريق غير عادى ، وبهذا تهيأ احتمالها صدمة الحمل عندما حصل .

وكأن الله تعالى جعل النفخ يأخذ مكان نطفة الرجل ، وكان تمثل الملك بصورة البشر كتمثل الطين بصورة الطير ، والنفخ فى مريم كالنفخ فى الطين ، وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة ، وإلا فعيسى خلق من نطفة مريم والجزء الآخر بإذن الله وقدرته « كُنْ فَيَكُونُ » وسنن الله التى أوجدها فى الكون وكفل لها الاستمرار وعدم التبدل ، والتى قام عليها نظام العالم « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » ، قد بدلت فى المعجزات بالقدرة الإلهية التى تضع جميع السنن ، وكأن المعجزة سنة جديدة .

والخلاصة — أن المعجزات كلها من صنع الله ، وهى سنة جديدة غير ما نشاهد كل يوم ، فحركة الشمس وطلوعها من المشرق مع عظمها لا تحدث دهشة لتعودنا إياها ، ولكن إن طلعت من المغرب دون المشرق كان معجزة وأحدث غرابة ودهشة مع أن الحركتين من صنع الله لا فارق بينهما ، ولكى لا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة يهيئ الله الظروف لتحملها ويهيئ النبي لقبولها ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها وقبولها ، فأمر الله موسى بإدخال يده فى جيبه وإخراجها بيضاء تهيئة لمعجزاته الأخرى ، وليس للعقل أن يحكم أن أى المعجزات أعظم من الأخرى لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه ، فلا يمكن الإنسان مهما ارتقى عقله أن يصل إلى صنعها بل هى فوق قدرته ..

أما المخترعات العلمية فهى مبنية على السنن العلمية ، مهما ظهرت مدهشة كالكهرباء والمسرة (التليفون) وغاية ما هناك أن العلماء سخروها لأغراضهم ، فالذى يتكلم فى أوربا ويسمع صوته فى مصر بوساطة (الراديو) إنما استطاع ذلك لأنه قد استخدم الهواء الذى يحمل أمواج الصوت إلى العالم كله ، وهكذا حال سائر المخترعات ، إنما هى كشف لناموس إلهى يتكرر دائما على يد كل إنسان ، لكن المعجزات تجرى على طراز آخر ، فهى خلق سنة جديدة فى الكون ، ولا تتكرر إلا بإذن الله ، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة ولا يدرك طريقا لصنعها اه .

(كلوا واشربوا من رزق الله) أى وقلنا لهم كلوا مما رزقناكم من المن والسلوى واشربوا مما فجرنا لكم من الماء من الحجر الصلد ، وقد عبر عن الحال الماضية بالأمر ليستحضر السامع صورة أولئك القوم فى ذهنه مرة أخرى حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب موجه إليهم .

(ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) أى لا تنشروا فسادكم فى الأرض وتكونوا قدوة لغيركم فيه ، وقد جاء هذا النهى عقب الإنعام عليهم بطيب المأكل والمشرب خيفة أن ينشأ الفساد بزيادة التبسط فيهما ، ولئلا يقابلوا النعم بالكفران .

وقد أراد موسى أن يجتث أصول الشرك التى تغلغلت جذورها فى نفوس قومه، ويربأ بهم عن الذل الذى ألفته نفوسهم بتقادم العهد واستعباد المصريين إياهم، ويعوّدهم العزة والشمم والإباء بعبادة الله وحده .

وكانوا لايخطون خطوة إلا اجترحوا خطيئة ، وكلما عرض لهم شىء من مشاق السفر برموا بموسى وتحسروا على فراق مصر وتمنوا الرجوع إليها ، واستبطئوا وعد الله فطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله ، وصنعوا عجلا وعبدوه .

وحينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التى وعدوا بها ، اعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين ، كما قصه الله علينا «قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا» فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة حتى ينقرض ذلك الجيل الذى تأصلت فيه جذور الوثنية ويخرج جيل جديد يتربى على العقائد الحقة وفضائل الأخلاق ، فتاهوا هذه المدة وقضى الله أمراً كان مفعولا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ، فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

شرح المفردات

الصبر : حبس النفس وكفها عن الشىء ، والطعام هو المن والسلوى وجعلوهما طعاما واحداً لأنهما طعام كل يوم ، والعرب تقول لمن يجعل على مائدته كل يوم ألواناً من

الطعام لا تتغير : إنه يأكل من طعام واحد ، والبقل النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكَرَفْس والنعناع ونحوهما ، والقثاء ما تسميه العامة (القَتَّة) والفوم الحنطة ، وقال جماعة منهم الكسائى إنه الثوم ويرجح هذا ذكر العدس والبصل . والاستبدال طلب شيء بدلا من آخر ، وأصل الأدنى الأقرب ثم استعمل للأخس الدون ، والهبوط الانحدار والنزول ، والمصر البلد العظيم ، وضربت أى أحاطت بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت بهم كما تطبع الطُّغْرَى على السِّكَّة ، والذلة الذل والهوان ، والمسكنة الفقر ، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة ، والمراد بها هنا فقر النفس وشحها ، وباءوا بغضب أى استحقوا الغضب ، يعتدون أى يتعدون حدود الله .

المعنى الجملى

ذكر هنا جُرما آخر من جرائم أسلافهم التى تدل على كفرانهم بأنعم الله ، وترشد إلى أنهم دأبوا على إعنات موسى ، وأنهم أكثروا من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع حتى ييأس منهم ويرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة ، ومع صادق وعده لهم بأن يمكن لهم الدخول فى الأرض الموعودة ، ويرفع عنهم الخسف الذى كانوا فيه ، ومع كثرة ما شاهدوا من الآيات الدالة على صدقه ، كانوا فى ريب من تحقيق ما قال لهم ويظنون أنه خدعهم حين أخرجهم من مصر وجاء بهم إلى البرية .

وقد بلغ من إعناتهم له أن قالوا « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً » وأن قالوا « لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » وهم يريدون بذلك أنه لا أمل لك فى بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد ، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سأم وكراهية لوحدة الطعام ، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون .

الإيضاح

(وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) أى وإذ قال أسلافكم من قبل إعناتا لموسى وبطرا بما هم فيه ، لن نصبر على أن يكون طعامنا الذى لا يتغير أبداً هو المن والسلوى .

(فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) أى سل ربك لأجلنا بدعائك إياه أن يخرج لنا كذا وكذا ، وإنما سألوه أن يدعو لهم لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم ، وقالوا ربك ولم يقولوا ربنا لأنه اختصه بما لم يعط مثله لهم من مناجاته وتكليمه وإيتائه التوراة ، فكأنهم قالوا ادع لنا من أحسن إليك بما لم يحسن به إلينا ، فكما أحسن إليك من قبل نرجو أن يحسن إليك بإجابة هذا الدعاء .

(قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟) أى قال لهم موسى على سبيل التوبيخ والاستهجان : أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن الذى فيه حلاوة تألفها الطباع ، والسلوى الذى هو أطيب لحوم الطير ، وهما غذاء كامل لذيذ وليس فيما طلبوه ما يساويهما ؟

(اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم) أمرهم موسى أن ينزلوا من التيه ويسكنوا مصراً من الأمصار إن كانوا يريدون ما سألوه ، لأن هذه الأرض التى كتب الله عليهم أن يقيموا فيها إلى أجل محدود ليس من شأنها أن تنبت هذه البقول ، والله تعالى لم يقض عليهم بالبقاء فيها إلا لضعف عزائمهم وخور هممهم عن أن يغالبوا من سواهم من أهل الأمصار ، فهم الذين قضوا على أنفسهم بأكل هذا الطعام الواحد ، ولا سبيل للخلاص مما كرهوا إلا بالإقدام على محاربة من يليهم من سكان الأرض الموعودة ، والله كفيل بنصرهم ، فليطلبوا ما فيه الفوز والفلاح لهم .

(وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أى أن الله عاقبهم على كفران تلك النعم بالذل الذى يهون على النفس قبول الضيم والاستكانة والخضوع فى القول والعمل وتظهر

آثار ذلك فى البدن ، فالذليل يستخذى و يسكن إذا طاف بخياله يد تمتد إليه ، أو قوة قاهرة تريد أن تستذله وتقهره ، وترى الذل والصغار يبدو فى أوضاع أعضائه وعلى ظاهر وجهه .

(وباءوا بغضب من الله) أى واستحقوا غضب الله بما حل بهم من البلاء والنقم فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة .

(ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) أى أن ما حل بهم من ضروب الذلة والمسكنة واستحقاق الغضب الإلهى ، كان بسبب ما استمرأته نفوسهم من الكفر بآيات الله التى آتاها موسى وهى معجزاته الباهرة التى شاهدوها ، فإن إعناتهم له و إحراجهم إياه دليل على أنه لا أثر للآيات فى نفوسهم ، فهم لها جاحدون منكرون .

(و يقتلون النبيين بغير الحق) فهم قتلوا أشعيا وزكريا و يحيى وغيرهم بغير الحق أى بغير شبهة عندهم تسوغ هذا القتال ، فإن من يأتى الباطل قد يعتقد أنه حق لشبهة تعنّ له ، وكتابهم يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عن الأنبياء إلا بحق يوجب ذلك.

وفى قوله: بغير الحق مع أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك ، مزيد تشنيع بهم ، وتصريح بأنهم ما كانوا مخطئين فى الفهم ولا متأولين للحكم ، بل هم ارتكبوه عامدين مخالفين لما شرع الله لهم فى دينهم .

(ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى أن كفرهم بآيات الله وجرأتهم على النبيين بالقتل إنما كانا بسبب عصيانهم وتعديهم حدود دينهم ، فإن للدين هيبة فى النفس تجعل المتدين به يحذر مخالفة أمره ، حتى إذا تعدى حدوده مرة ضعف ذلك السلطان الدينى فى نفسه ، وكلما عاد إلى المخالفة كان ضعفه أشد ، إلى أن تصير المخالفة طبعا وعادة ، وكأنه ينسى حدود الدين ورسومه ، ولا يصبح للدين ذلك الأثر العميق الذى كان متغلغلا فى قرارة نفسه .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

المعنى الجملي

بعد أن أنحى باللائمة على اليهود فى الآيات السالفة ، وبين ما حاق بهم من الذل والمسكنة ، وما نالهم من غضب الله جزاء ما اجترحوه من السيئات من كفر بآيات الله وقتل للنبيين وعصيان لأوامر الدين وترك لحدوده ومخالفة لشرائعه ، ذكر هنا حال المستمسكين بحبل الدين المتين من كل أمة وكل شعب ممن اهتدى بهدى نبى سابق وانتسب إلى شريعة من الشرائع الماضية وصدّق فى الإيمان بالله واليوم الآخر، وسطع على قلبه نور اليقين، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا) أى إن المصدقين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أتاهم به من الحق من عند الله .

(والذين هادوا) أى دخلوا فى اليهودية ، يقال هاد القوم يهودون هوداً وهادة : صاروا يهوداً .

(والنصارى) واحدهم نصران وسموا بذلك من أجل أن مريم نزلت بعيسى فى قرية يقال لها الناصرة .

(والصابئين) هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء .

(من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً) أى من تحلى منهم بالإيمان الخالص بالله والبعث والنشور وعمل صالح الأعمال .

(فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى فلهم ثواب عملهم

الصالح عند ربهم ولا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وزينتها إذا عاينوا ما أعد الله لهم من نعيم مقيم عنده .

والخلاصة — أن المؤمن إذا ثبت على إيمانه ولم يبدله ، واليهودى والنصرانى والصابئ إذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به وباليوم الآخر وعملوا صالحاً ولم يغيروا حتى ماتوا على ذلك ، فلهم ثواب عملهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يعتريهم حزن ، فمدار الفلاح هو الإيمان الصحيح الذى له سلطان على النفوس والعمل الصالح الذى به تتم سعادتها ويكتب لها به الفوز فى الدنيا والآخرة ، قال الإمام الغزالى : إن الناس فى شأن بعثة النبى صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة :

(١) من لم يعلم بها بالمرة ، وهذا ناج حتما .

(٢) من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها إهمالا أو عناداً واستكباراً وهذا مؤاخذ حتما .

(٣) صنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته ووصفه ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقفع تحدى بالنبوة كاذبا ، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول ، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب اهـ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

شرح المفردات

الطور : هو الجبل المعروف الذى ناجى فيه الله موسى عليه السلام ، ورفعُه قد فسره فى سورة الأعراف فقال : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ » النتق الهز والزعزعة والجذب ، فالنتق فى الجبل كان بما يشبه الزلزال فيه ، والخسران ذهاب رأس المال أو نقصه .

المعنى الجملى

ذكر الله فى هاتين الآيتين جناية أخرى حدثت من أسلاف المخاطبين وقت التنزيل ، ذاك أنه بعد أن أخذ الله عليهم المواثيق التى ذكرها بقوله : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » الخ فقبلوها وأراهم من الآيات ما فيه مقنع لهم ، رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم ، وطلب إليهم التمسك بالكتاب والعمل بما فيه بالجد والنشاط ، كى يعدوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه ، ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك وانصرفوا عن طاعته ، ولولا لطف الله بهم لاستحقوا العقاب فى الدنيا وخسروا سعادة الآخرة وهى خير ثوابا وخير أملا ، لكن وفقهم الله بعد ذلك فتابوا ورحمهم فقبل توبتهم .

الإيضاح

(وإذ أخذنا ميثاقكم) أى اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما فى التوراة وقبولهم ذلك .

(ورفعنا فوقكم الطور) وأريناهم هذه الآية بعد أخذ الميثاق لكى يأخذوا ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد ، لأن رؤية ذلك مما يقوى الإيمان ويحرك الشعور والوجدان .

(خذوا ما آتيناكم بقوة) أى وقلنا لهم خذوا الكتاب وهو التوراة بجد وعزيمة ومواظبة على العمل بما فيه .

(واذكروا ما فيه) أى ادّارسوه ولا تنسوا تدبر معانيه واعملوا بما فيه من الأحكام ، فإن العمل هو الذى يجعل العلم راسخاً فى النفس مستقرا عندها ، كما أثر عن علىّ أنه قال : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل .

فحال التارك للشريعة المضيع لأحكامها أشبه بحال الجاحد المعاند لها وهو جدير بأن يحشره الله يوم القيامة أعمى عن طريق الفلاح والسعادة حتى إذا لقى ربه « قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى » فالجاحد للشريعة والناسى لها المضيع لأحكامها لا يكون لها أثر فى نفوسهما لا ظاهرا ولا باطناً .

ومن ذلك تعلم أن الحجة قائمة على من ليس لهم حظ من القرآن إلا التغنى بألفاظه وأفئدتهم هواء من عظاته ، وأعمالهم لاتنطبق على ما جاء به ، فما القصد من الكتب الإلهية إلا العمل بما فيها لا تلاوتها باللسان وترتيلها بالأنغام ، فإن ذلك نبذٌ لها ، قال الغزالى : وما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتابا إلى أحد أمرائه وأمره أن يبنى له قصرا فى ناحية من مملكته ، فلم يكن حظ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبنى القصر ، أفلايستحق هذا الأمير بعدئذ العقاب من الملك الذى أرسل به إليه ؟ ثم ذكر لهم فائدة ذكره فقال :

(لعلكم تتقون) أى ليعد نفوسكم لتقوى الله عز وجل : ذاك أن المواظبة على العمل تطبع فى النفس سجية المراقبة لله ، وبها تصير تقية نقية من أدران الرذائل راضية مرضية عند ربها « وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » .

(ثم توليتم من بعد ذلك) أى ثم أعرضتم وانصرفتم عن الطاعة بعد أن أخذ عليكم الميثاق وأراكم من الآيات ما فيه عبرة لمن ادّكر .

(فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) أى ولولا لطف الله بكم وإمهاله إياكم إذ لم يعاملكم بما تستحقون ، لكنتم من الهالكين بالانهماك فى المعاصى .

والخلاصة — أنكم بتوليكم استحققتم العقاب ، ولكن فضل الله عليكم ورحمته أبعده عنكم ، ولولا ذلك لخسرتم سعادتى الدنيا والآخرة .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

شرح المفردات

الاعتداء : تجاوز الحد فى كل شىء ، وواحد القردة قرد ، وواحد الخاسئين خاسىء وهو المبعد المطرود من رحمة الله ، والنكال ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر غيره ، والموعظة ما يلقى من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه .

المعنى الجملى

فى هاتين الآيتين وما يتلوهما بعدُ — تعداد لنكث العهود والمواثيق التى أخذت على بنى إسرائيل الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام وحل بهم جزاء ما عملوا من مسخهم قردة وخنازير ، فأجدرْ بسلائلهم الذين كانوا فى عصر التنزيل تتخلل دورهم دور الأنصار ألا يجحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وألا يصروا على كفرهم وعدم التصديق بما جاء به خوفا من أن يحل بهم ما حل بأسلافهم مما لا قبل لهم به من غضب الله .

فمن عهودهم التى نكثوها أنهم اعتدوا يوم السبت ، ذاك أن موسى عليه السلام حظر عليهم العمل فى هذا اليوم وفرض عليهم فيه طاعة ربهم والاجتهاد فى الأعمال الدينية ، إحياء لسلطان الدين فى نفوسهم ، وإضعافا لشرههم فى التكالب على جمع حطام الدنيا وادخاره ، وأباح لهم العمل فى ستة الأيام الأخرى .

لكنهم عصوا أمره وتجاوزوا حدود الدين واعتدوا فى السبت فجازاهم الله بأشد أنواع الجزاء ، فخرج بهم من محيط النوع الإنسانى وأنزلهم أسفل الدركات فجعلهم يرتعون فى مراتع البهائم ، وليتهم كانوا فى خيارها ، بل جعلهم فى أخس أنواعها ، فهم كالقردة فى نزواتها والخنازير فى شهواتها مبعدين من الفضائل الإنسانية يأتون المنكرات جهاراً عياناً بلا خجل ولا حياء حتى احتقرهم كرام الناس ولم يروهم أهلا لمعاشرة ولا معاملة .

الإيضاح

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) أى لقد عرفتم نبأ الذين تجاوزوا منكم الحد الذى رسمه لهم الكتاب وركبوا ما نهاهم عنه من ترك العمل الدنيوى والتفرغ للعمل الأخروى يوم السبت ، وسيأتى إيضاح هذا فى سورة الأعراف .

(فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى فصيرناهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد أنه قال : مامسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم ، فلا تقبل وعظا ولا تعى زجرا .

وقد مثل الله حالهم بحال القردة كما مثلوا بالحمار فى قوله : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا (يعملوا بما فيها) كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً » .

وذهب جمهور العلماء إلى أنهم مسخت صورهم فصارت صور القردة ، وروى أن الممسوخ لا ينْسُل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ، ونظير الآية قوله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » الطاغوت : الشيطان .

قال الأستاذ الإمام : والآية ليست نصا فى رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل ، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان ، إذ ليس ذلك من سنته فى خلقه ،

و إنما العبرة الـكبرى فى العلم بأن من سنن الله فى الذين خلوا من قبلُ — أن من يفسق عن أمره و يتنكب الصراط الذى شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان و يلحقه بعجماوات الحيوان ، وسنة الله واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية اه . وفى هذا تأييد لرأى مجاهد وتفضيل له على رأى الجمهور ، قال ابن كثير : والصحيح أن المسخ معنوى كما قال مجاهد لا صورى كما قال غيره .

(فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) أى فجعلنا هذه العقوبة عبرة ينكُل من يعلم بها أى يمتنع من الاعتداء على حدود الله ، سواء منهم من وقعت فى زمانه أو من بعدهم إلى يوم القيامة .

وهى أيضا موعظة للمتقين ، لأن المتقى يتعظ بها و يتباعد عن الحدود التى يخشى اعتداءها كما قال : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا » و يعظ بها غيره ، ولن يتم الاتعاظ بها وتكون عقوبة للمتقدم والمتأخر إلا إذا جرت على سنن الله المطردة فى تهذيب النفوس وتربية الشعوب ، فرأى مجاهد أحرى بالقبول ولا سيما أنه ليس فى الآية نص على كون المسخ فى الصور والأجساد .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ

وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَاشِيَةَ فِيهَا ، قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

شرح المفردات

البقرة اسم الأنثى ، والثور اسم الذكر ، والهزؤ السخرية ، والجهل هنا فعل ما لا ينبغى أن يفعل ، وقد يطلق على اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه ، والفارض المسنة التى انقطعت ولادتها ، والبكر الصغيرة التى لم تحمل بعدُ ، والعوان النصَف فى السن من النساء والبهائم ، والذلول الريّض الذى زالت صعوبته ، يقال دابة ذلول بيّنة الذل (بالكسر) ورجل ذلول بين الذل (بالضم) والإثارة قلب الأرض للزراعة ، والحرث الأرض المهيأة للزرع ، والمسلَمة التى سلمت من العيوب ، والشِّيَةُ العلامة أى لا لون فيها يخالف لونها من وشى الثوب يشيه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان ، والآيات هى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور الغريبة ، ويقال عقلت نفسى عن كذا أى منعتها منه .

المعنى الجملى

فى هذا القصص بيان نوع آخر من مساويهم لنعتبر به ونتعظ ، وفيه من وجوه العبرة :

(١) أن التنطع فى الدين والإلحاف فى السؤال مما يقضى التشديد فى الأحكام ، ومن ثم نهينا عن ذلك بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ » وبما جاء فى صحيح الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم « وكره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » .

(٢) أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان ، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ليهون عندهم ما كانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من حب عبادته .

(٣) استهزاؤهم بأوامر الأنبياء .

(٤) أن يحيا القتيل بقتل حى فيكون أظهر لقدرته تعالى فى اختراع الأشياء من أضدادها .

وأول القصة معنًى قوله : « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً » الخ إذ هى المخالفة التى صدرت منهم ، ثم ذكر المنة فى الخلاص منها فى قوله : « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » الخ وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها وهى ذبح البقرة .

وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب فى ذبح البقرة والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة فى أمر الله أمة بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها .

والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين فى تنسيق الكلام على حسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذى يستثير اللب ويأخذ بمجامع القلب ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث .

الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) روى فى سبب الذبح أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر قتله بنو عمه طمعاً فى ميراثه وحملوه إلى قرية أخرى وألقوه بفنائها ثم جاءوا يطالبون بديته ، وادعوا على ناس منهم أنهم قتلوه ، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه الأمر ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ماخفى من أمر القاتل فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله .

(قالوا أتتخذنا هزواً ؟) أى قالوا : أتجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا ؟ نسألك

عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة ، وهذا غاية فى الغرابة و بعيد كل البعد عما نريد ، وقدكان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره و يقابلوه بالتجلة والاحترام ثم ينتظروا مايحدث بعدُ ، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفة الأحلام وجفاء الطبع والجهل بقدرة الله تعالى .

(قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) أى ألتجىء إلى الله من الهزؤ والسخرية بالناس ، إذ هو فى مقام تبليغ أحكام الله دليل السفه والجهل .

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها ، وقد سألوا عن صفتها لمّا قرع أسماعهم بما لم يعهدوه ، فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب والغرابة والحيرة والدهشة ، ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم .

(قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) أى ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة بل هى وسط بينهما .

(فافعلوا ما تؤمرون) أى فامتثلوا الأمر ولا تتوانوا فى نفاذه ، ولا يخفى ما فى هذا من التحذير والتنبيه على ترك التعنت ، وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة إلى الامتثال ، لكنهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء فأعادوا الطلب .

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) سألوا عن لونها فأجيبوا بما فيه الكفاية فى بيان مميزاتها لكنهم ما قنعوا بهذا بل زادوا فى الإلحاف و إعادة السؤال مرة أخرى .

(قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) هذا سؤال لطلب إيضاح زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة ، و إظهار لأنه لم يحصل لهم تمام البيان .

ثم ذكروا السبب فى إعادة السؤال .

(إن البقر تشابه علينا) أى لأن وجوه البقر تتشابه ، وفى الحديث أنه ذكر فتنا كقطع الليل تأتى كوجوه البقر — أى يشبه بعضها بعضا .

(وإنا إن شاء الله لمهتدون) إلى البقرة المأمور بذبحها ، أو لما خفى من أمر القاتل، أو إلى الحكمة التى من أجلها أمرنا ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يستثنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم آخر الأبد » .

(قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها) أى إنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحراثة والسقى ، وهى سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

(قالوا الآن جئت بالحق) أى أنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به بعد ذكر هذه المميزات التى ذكرتها لنا .

(فذبحوها) أى فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة ، حتى وجدوها فذبحوها .

(وما كادوا يفعلون) وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم وانقطع ما كان من تنطعهم وتعنتهم .

والخلاصة — فذبحوها بعد توقف وبطء ، روى ابن جرير عن ابن عباس ، لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

(وإذ قتلتم نفساً) هذا مؤخر لفظا مقدم معنى لأنه أول القصة — أى وإذ قتلتم نفسا وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى ، فقال موسى إن الله يأمركم إلى آخر الآيات ولم يقدم لفظا لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل، وأسند القتل إلى اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم لأنهم سلائل أولئك ، وهم راضون بفعلهم، كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد ، لأن الأمة فى مجموعها كالشخص الواحد ، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد كما قال أبو الطيب :

وجرم جره سفهاء قوم ... فحل بغير جارمه العقاب

(فادارأتم فيها) أصل ادارأتم تدارأتم من الدرء وهو الدفع أى تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها ، وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه .

(والله مخرج ما كنتم تكتمون) أى والله مظهر لا محالة ما كتمتم وسترتم من أمر القتل، فمن كان يعرف أمره يكتمه لهوى فى نفسه وأغراض تبعد عنه الضغن والعداوة.

(فقلنا اضربوه ببعضها) أى اضربوا المقتول ببعض البقرة ، أىَّ بعض كان وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها .

(كذلك يحيي الله الموتى) أى فضربوه فحيي ، وقلنا كذلك يحيي الله الموتى ، أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيي الله الموتى يوم القيامة ، وقد روى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دما ، وقال قتلنى فلان وفلان وهما ابنا عمه ، ثم سقط ميتا فأخذا وقتلا .

وإنما أمرهم بالضرب ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة .

(ويريكم آياته) وهى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت ، وإخبار الميت بقاتله ، مما ترتب عليه الفصل فى الخصومة وإزالة أسباب الفتن والعداوة .

(لعلكم تعقلون) أى لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ . وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

شرح المفردات

القسوة : اليبس والصلابة ، يتفجر يتفتح ويتشقق بكثرة وسعة ، ويهبط يتردى وينزل ، والخشية : الخوف .

المعنى الجملى

وصف الله حال بنى إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التى آتاها موسى عليه السلام ما رأوا ، كانفجار الماء ورفع الجبل ومسخهم قردة وخنازير وإحياء القتيل إلى نحو ذلك — وصفهم بقساوة القلوب وضعف الوازع الدينى فيها حتى أصبحت كالصم الصلاد ، بل أشدَّ منها قسوة ، فلا أثر فيها لعاطفة عبرة ولا شعور لها بعظة ، فقد فقدت التأثر والانفعال ، وكأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركات الجماد كالحجارة ، بل نزلوا إلى ما دونها ، فإن من الحجارة ما يتأثر فيشقه الماء العذب الزلال الذى يسيل أنهارا وجداول وعيونا يستقى منها الإنسان والحيوان ويحيى الأرض وينفع النبات ، ومنها ما ينحط من أعلى الجبل ، أو من أثنائه بحادث من حوادث السكون الهائلة كالبراكين والزلازل والصواعق التى تدك الصخور وتدمر الحصون .

أما هذه القلوب فلم تتأثر بالعظات والعبر ولم تستطع تلك النذر أن تشقها وتنفذ إلى أعماق الوجدان فيها ، وصارت لا تهزها الآيات الكونية الرهيبة التى أظهرها الله على يد نبيه، فقد كانوا مع كل ما يرونه لا يزدادون إلا عنادا، وعتوا فى الأرض وفسادا.

الإيضاح

(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) أى أن قلوبكم صلبت بعد إذ رأيتم الحق وعرفتموه ، واستكبرت عن الخضوع والإذعان لأمر الدين ، فهى كالحجارة صلابة ويبسا بل أشد منها .

والسر فى تشبيه القلوب بالحجارة دون غيرها من نحو الحديد والصُّفْر ، أن كلا منهما يسيل بالإحماء بالنار بخلاف الحجر .

(وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار . وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء . وإن منها لما يهبط من خشية الله) أى أن هذه الحجارة تارة تتأثر تأثرا يعود بمنفعة

عظيمة على الناس والحيوان والزرع بخروج الأنهار منها ، وأخرى تتأثر تأثرا ضعيفا يترتب عليه منفعة قليلة فتنبع منه العيون والآبار ، وحينا تتأثر بالتردى والسقوط بلا منفعة للناس ، وقلوب هؤلاء لا تتأثر بحال ، فلا تجدى فيها الحكم والمواعظ التى من شأنها أن تنفذ فى الوجدان وتصل إلى الجنان .

(وما الله بغافل عما تعملون) أى أن الله لهم بالمرصاد ، فهو حافظ لأعمالهم ومحصيها عليهم ثم يجازيهم بها ، وهو يربيهم بصنوف النقم إذا لم تجد فيهم ضروب النعم — ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

المعنى الجملى

كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه شديدى الحرص على دخول اليهود فى ساحة الدين الجديد طامعين فى انضوائهم تحت لوائه ، لأن دينهم أقرب الأديان إلى دينهم فى تعاليمه ومبادئه وأغراضه ، فهم يشركونهم فى الاعتقاد بالتوحيد والتصديق بالبعث والنشور ، وكتابهم مصدق لما معهم .

فقص الله فى هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم ما أزال به أطماعهم وأيأسهم من إيمانهم بذكر ما كان يحدث من أسلافهم مع نبيهم موسى صلوات الله عليه بين آن وآخر من تمرد وعناد وجحود وإنكار ، فتأتيهم الآية تلو الآية ويحل بهم من العقاب ما هم له أهل فيطلبون من موسى أن يدعو الله ليرفع عنهم العذاب ويستجيبوا لدعوته ، حتى إذا ما رفعه عنهم عادوا سيرتهم الأولى معاندين جاحدين ، وقد بلغ من عنادهم أن قالوا له : لا نصدق بك ولا نطيع أوامرك حتى نسمع كلام الله ومناجاته إياك ، فاختار موسى بأمر الله سبعين رجلا منهم لسماع الوحى ومصاحبته إلى حيث يناجى ربه ، فسمعوا كلامه بطريق نحن لا نعرفها ولا ندرك كنهها ، واستيقنوا مناجاته ربه وسمعوا أوامره ونواهيه — ثم كان منهم أن حرفوا كلام الله الذى حضروا وحيه وصرفوه عن وجهه بالتأويل والتحريف ، وهذا مثبت عندهم فى التوراة وهى كتابهم المقدس .

فلا عجب إذاً فى إعراض الحاضرين عن هدى الله الذى جئت به ، فالمعارضة والاستكبار دأبهم ورثوهما من أسلافهم الذين كانوا يحرفون ويبدلون ويكابرون وهم يشاهدون الدلائل الحسية تترى بين يدى موسى عليه السلام ، فأَحْرِ بهم أن يجحدوا دينا دلائله عقلية وآيته الكبرى معنوية وهى القرآن الكريم بما اشتمل عليه من تشريع فيه سهولة وتيسير للناس، وفيه فصاحة أعجزت فصحاء العرب عن محاكاته ، فلجئوا إلى السيف والسِّنان بعد أن أعجزتهم الحجة والبرهان ، ثم ذكر حالا أخرى لهم هى أن علماءهم وقعوا فى الحيرة والاضطراب حين مجىء الدين الجديد ، أيتبعونه ولكن ربما خذله أتباعه ، أم يحتفظون بالقديم ولكن ربما كسدت سوقه وقل أنصاره ، وقالوا من الخير كل الخير أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الحزب الآخر إذا عرف ما كان منا حتى يتبين اتجاه ريح السفينة .

أما عامتهم فلا علم لهم بشىء من الكتاب ، وما عندهم من الدين إلا ظنون أخذوها عن أسلافهم دون أن يكون لديهم دليل على صحتها أو فسادها ، ومثل هذا

لا يسمى علما ، إنما العلم ما كان عن حجة و برهان ، ولا يقبل الله إلا العلم الصحيح فى عقائد الأديان .

الإيضاح

(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) الطمع تعلق النفس بإدراك ما تحب تعلقا قويا ، وهو أشد من الرجاء ، أن يؤمنوا لكم أى أن يؤمنوا لأجل دعوتكم إياهم ، والفريق الجماعة لا واحد له من لفظه ، من بعد ما عقلوه أى ضبطوه وفهموه ولم تشتبه عليهم صحته ، وفى ذلك إيماء إلى تعمدهم وسوء قصدهم ، و إبطال لما عساه أن يعتذر لهم به من سوء الفهم ، وقوله وهم يعلمون أى كانوا فى حال العلم بالصواب لا ناسين ولا ذاهلين ، وفى هذين الوصفين نعى عليهم وتسجيل لتعمق الفسوق والعصيان فيهم .

وحاصل المعنى — استبعاد الطمع فى إيمان هؤلاء ، فقد كان لهم سلف من الأحبار والرؤساء على تلك الحال الشنيعة من تحريف لكلام الله بعد سماعه وتأويله على حسب ما يشاءون ، وليس هؤلاء بأحسن حالا من أولئك .

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى إذا لقى اليهود أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قال المنافقون منهم : إنا آمنا كإيمانكم وإن محمدا هو الرسول المبشر به .

(وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟) قوله فتح الله عليكم أى بينه لكم خاصة فى التوراة من الأحكام والبشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، والتعبير عنه بالفتح للإشارة إلى أنه سر مكتوم و باب مغلق لا يقف عليه أحد ، وقوله : « لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ » أى ليحتجوا عليكم به فيقطعوكم بالحجة ويبكتوكم ، وقوله : « عِنْدَ رَبِّكُمْ » أى فى حكمه وكتابه ، وقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى ألا تعقلون هذا الخطأ الفاحش وأن ذلك يكون حجة عليكم .

والمعنى — وإذا اجتمع بعض ممن لم ينافق إلى بعض ممن نافق قال الأولون

عاتبين على الآخرين من المنافقين وعاذلين لهم على الإفضاء إلى المؤمنين بما بينت لهم التوراة من الإيمان بالنبى الذى يجىء مصدقا لما معهم كى يقيموا عليهم الحجة من كتاب ربهم ، من قِبَل أن ما حدثوا به موافق لما فى القرآن ، ولولا أن محمدا نبى لما علم بهذا الذى حكاه عنهم .

(أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى أيقول اللائمون ما قالوا ويكتمون من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ما كتموا ويحرفون من كتابهم ما حرفوا ؟ ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من إظهار إيمان وود ، فإن كانوا يؤمنون بأن الله محيط بكل شىء علما ، فلم لا يخشون بأسه ، وهو المطلع على الظاهر والعالم بما يجول فى الضمائر ، والمجازى على ذلك بالخزى فى الدنيا والعذاب المهين فى الآخرة ؟

(ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) الأميون واحدهم أمى وهو من لا يقرأ ولا يكتب أى أنه كما ولدته أمه ، ومنه الحديث « إنَّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، والأمانى واحدها أمنية وهى التلاوة كما قال كعب ابن زهير :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حِمَام المقادر

أى أنه لا حظ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظ من غير فهم للمعنى ولا تدبر له بحيث يظهر أثرها فى العمل ، وهذا على حد قوله : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » .

(وإن هم إلا يظنون) أى وما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم المبنى على البرهان القاطع الذى لا شك فيه .

وقد كانوا أكثر الناس جدلا ومراء فى الحق وإن كان بينا ظاهرا وأشدهم كذبا وغرورا وأكلا لأموال غيرهم بالباطل من ربا فاحش وغش وتدليس ، وهم مع ذلك يعتقدون أنهم أفضل الناس كما يعتقد أشباههم فى هذا الزمان .

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) الويل كلمة يقولها من يقع فى هَلَكَة ، وهى دعاء على النفس بالعذاب كما جاء فى قوله تعالى حكاية عن الكافرين « يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ » .

أى هلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون لعوامهم هذا المحرف من عند الله فى التوراة .

(ليشتروا به ثمناً قليلا) أى ليأخذوا لأنفسهم فى مقابلة هذا المحرف ثمنا وهى الرُّشَى التى كانوا يأخذونها جزاء ما صنعوا ، ووصف الثمن بالقلة وقد يكون كثيرا ، لأن كل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل ، لأن الحق أثمن الأشياء وأغلاها ، وقد روى أن الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين خافوا أن تذهب رياستهم بإبقاء صفة النبى فى التوراة فغيروها .

ثم كرر الوعيد فقال :

(فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) أى فلهم عقوبة عظيمة من أجل كتابتهم هذا المحرف ، وويل لهم من أخذهم الرشوة وفعلهم المعاصى .

وقد جنى اليهود الكاتبون ثلاث جنايات : تغيير صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، والافتراء على الله ، وأخذ الرشوة ، فهددوا على كل جناية بالويل والثبور .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده : من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه اليهود من قبلُ فلينظر فيما بين يديه فإنه يراها واضحة جلية ، يرى كتباً ألفت فى عقائد الدين وأحكامه حرفت فيها مقاصده وحولت إلى ما يغر الناس ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم ، ويقولون هى من عند الله وما هى من عند الله ، وإنما هى صادة عن النظر فى كتاب الله والاهتداء به — ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين : رجل مارق من الدين يتعمد إفساده ويتوخى إضلال أهله ، فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح ، يخادع الناس بذلك ليقبلوا ما يكتب ويقول ، ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه اه .

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

شرح المفردات

المس واللمس بمعنى ، والمراد بالنار نار الآخرة ، والمعدودة المحصورة القليلة ، والعرب تقول : شيء معدود ؛ أي قليل ، وغير معدود أي كثير ، والعهد الوحي وخبر الله الصادق ، بلى لفظ يجاب به بعد كلام منفى سابق ومعناه إبطاله و إنكاره ، والكسب جلب النفع ، فاستعماله فى السيئة من باب التهكم ، والسيئة الفاحشة الموجبة للنار ، والإحاطة الشمول كأن السيئة تحصر صاحبها وتأخذ جوانب قلبه .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات ضربا من ضروب غرورهم وصلفهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهو لايعذبهم دوما بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتاً قصيراً ثم يرضى عنهم .

الإيضاح

(وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) أكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام ، لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة ، فمن لم تدركه النجاة و يلحقه الفوز والسعادة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم ، وقيل إنها تمسهم أربعين يوما ، وهى المدة التى عبدوا فيها العجل .

(قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده) أى أعهد إليكم ربكم بذلك ووعدكم به وعداً حقاً ، إن كان كما تقولون فلن يخلف الله وعده .

(أم تقولون على الله ما لا تعلمون) أى أم أنتم تقولون على الله شيئا لا علم لكم به ، فإن مثله لا يكون إلا بوحى يبلغه الرسل عنه ، وبدون هذا يكون افتياتا على الله وجراءة عليه ، لأنه قول بلا علم فهو كفر صُراح .

وخلاصة هذا — أن مثل ذلك القول لا يصدر إلا عن أحد أمرين : إما اتخاذ عهد من الله ، وإما افتراء وتقوّل عليه ، وإذ كان اتخاذ العهد لم يحصل فأنتم كاذبون فى دعواكم مفترون بأنسابكم حين تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه .

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ليس الأمر كما ذكرتم بل تمسكم النار وتمس غيركم دهرا طويلا ، فكل من أحاطت به خطيئاته وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه واسترسل فى شهواته . وأصبح سجين آثامه فجزاؤه النار خالدا فيها أبدا ، لما اقترف من أسبابها بانغماسه فى الشهوات التى استوجبت ذلك العقاب .

والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله ، وصاحبه مخلد فى النار ، وبعض العلماء حمل السيئة على معناها العام وقال إن الخلود هنا المكث الطويل بمقدار ما يشاء الله ، فالعاصى مرتكب الكبائر يمكث فيها رَدَحا من الزمان ثم يخرج منها متى أراد الله تعالى وإذا أحدث المرء لكل سيئة توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا عن الذنب فلا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات ، روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى ذكر الله فى القرآن « كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى وأما الذين صدقوا الله ورسله وآمنوا باليوم الآخر وعملوا صالح الأعمال فأدوا الواجبات

وانتهوا عن المعاصى فأولئك جديرون بدخول الجنة جزاء وفاقا على إخباتهم لربهم وإنابتهم إليه وإخلاصهم له فى السر والعلن .

وفى هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معاً كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسفيان بن عبد الله الثقفى وقد قال له يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : قل آمنت بالله ثم استقم رواه مسلم .

وقد جرت سنة الله فى القرآن أن يشفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة وإرشاد العباد من الترغيب مرة والترهيب أخرى ، والتبشير طوراً والإنذار طوراً آخر ، إذ باللطف والقهر يرقى الإنسان إلى درجة الكمال ، ويفوز برضوان الله وحسن توفيقه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

شرح المفردات

الميثاق العهد الشديد المؤكد ، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم ، واليتيم من الحيوان من لا أم له ومن الإنسان من لا أب له ، وأصل المادة يفيد الانفراد ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها فى العقد ، والمسكين هو العاجز عن الكسب .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى الآيات السابقة بنى إسرائيل الذين كانوا فى عصر التنزيل بما أنعم الله به على آبائهم من النعم كتفضيلهم على العالمين ، وإنجائهم من الغرق

و إنزال المن والسلوى عليهم ، ثم ما كان يحصل إثر كل نعمة من مخالفة فحلول عقوبة فتوبة من الذنب بعد ذلك .

وفى هـذه الآية تذكير بأهم ما أمر به أسلافهم من عبادات ومعاملات ، ثم ما كان منهم من إهمالها وترك اتباعها ، وسيعاد الكلام فيها أيضا بعد ، لأن المقام يحتاج إلى الإطناب والبسط ، ولأن القلوب مستحجرة لاينفذ شعاع الحق فى أكنافها، وأذهانهم كليلة فهى فى حاجة إلى التكرار بين آن وآخر ، لعلها ترجع إلى رشدها .

وقد خوطب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا ليؤديهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع فى إيمانهم ، لأن قبائح أسلافهم تمنعهم من الهدى والرشاد قال : « إذا طاب أصل المرء طابت فروعه » .

الإيضاح

(و إذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل) علمت فيما سلف أن العهد قسمان عهد خلقة وفطرة ، وعهد نبوة ورسالة ، والمراد هنا عهد الرسالة الذى أخذه عليهم على لسان أنبيائهم أى واذكر أيها الرسول حين أخذنا عليهم الميثاق ثم بين هذا الميثاق فقال :

(لا تعبدون إلا الله) يقال أخذت عليك عهدا تفعل كذا ، وأن تفعل كذا ، و يرد مثل هذا الخبر فى كلامهم متضمناً معنى النهى أو الأمر كما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كيت وكيت ، على معنى اذهب وقل له ، وفى هـذا الأسلوب مبالغة وتوكيد كأن المخاطب سيمتثل النهى حتما و يسارع إلى الترك فيخبر الناهى به ، أى لا تعبدوا إلا الله .

وقد نهوا عن عبادتهم غير الله مع أنهم كانوا يعبدون الله خوفا من أن يشركوا به سواه من مَلَك أو بشر أو صنم بدعاء أو غيره من أنواع العبادات .

ودين الله على ألسنة الرسل جميعا فيه الحث على عبادة الله وعدم الشرك بعبادة أحد سواه « وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » فالتوحيد عماده الأمران معاً .

(وبالوالدين إحساناً) أى أحسنوا إليهما ، بأن تعطفوا عليهما وترعوهما حق الرعاية وتنزلوا عند أمرهما فيما لا يخالف أوامر الله ، وقد جاء فى التوراة أن من يسب والديه يقتل .

والحكمة فى البر بهما أنهما قد بذلا للولد وهو صغير كل عناية وعطف بتربيته والقيام بشئونه حين كان عاجزاً ضعيفاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، مع الشفقة التى لا مزيد عليها ، أفلا يجب عليه بعدئذ مكافأتهما جزاء وفاقا لما صنعا ؟ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ » .

ولحب الوالدين لولدهما أسباب :

(١) الحنان الفطرى الذى أودعه الله فيهما إتماما لحكمته فى بقاء الأنواع إلى ما شاء الله .

(٢) التفاخر بالأبناء كما قال ابن الرومى :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علت برسول الله عدنان

(٣) الأمل فى الاستفادة منهما مالا وعونا على المعيشة .

وهذا الحب لا يحتاج إلى مايقويه ويوثق صلته ، ومن ثم ترك القرآن النص عليه .

(وذى القربى) لأن الإحسان إليهم مما يقوى الروابط بينهم .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

فما الأمة إلا مجموعة الأسر والبيوت ، فصلاحها بصلاحها وفسادها بفسادها ، ومن لا بيت له لا أمة له ، ومن قطع لحمة النسب فكيف يصل ما دونها وكيف يكون جزءا من الأمة يسره ما يسرها ويؤلمه ما يؤلمها ، ويرى فى منفعتها منفعته ، وفى مضرتها مضرته .

ونظام الفطرة قاض بأن صلة القرابة أمتن الصلات ، وجاء الدين حاثا عليها مؤكدا لأواصرها مقويا لأركانها مقدما لحقوقها على سائر الحقوق على حسب درجات القرابة .

(واليتامى والمساكين) فالإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع ، والكتاب والسنة مليئان بالوصية به ، وحسبك من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

والسر فى هذا أن اليتيم لا يجد فى الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته والقيام بشئونه وحفظ أمواله ، والأم وإن وجدت تكون فى الغالب عاجزة عن تنشئته وتربيته التربية المثلى ، إلى أن الأيتام أعضاء فى جسم الأمة ، فإذا فسدت أخلاقهم وساءت أحوالهم تسرب الفساد إلى الأمة جمعاء ، إذ يصبحون قدوة سيئة بين نشئها ، فيدب فيها الفساد ويتطرق إليها الانحلال ، وتأخذ فى الفناء .

والإحسان إلى المساكين بالصدقة عليهم ومواساتهم حين البأساء والضراء ، روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله (وأحسبه قال) وكالقائم لايفْتُر والصائم لايُفْطِر » .

وقدم اليتيم على المسكين ، لأن هذا يمكنه أن يسعى بنفسه للحصول على قوته بخلاف الأول فإن الصغر مانع له من ذلك .

(وقولوا للناس حسناً) أمر الله أولا بالإحسان بالمال لأقوام مخصوصين وهم الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين ، إذ لايمكن الشخص أن يحسن به إلى الناس جميعا ، لأنه لايسع كل الأمة ، ثم اكتفى فى حقوق سائر أفرادها بحسن العشرة والقول الجميل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونحو ذلك مما هو نافع لهم فى الدين والدنيا .

وفى القيام بهذه الفرائض إصلاح لحال المجتمع وسعي فى رقيه وتقدمه حتى يبلغ ذروة المجد والشرف .

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) بعد أن أمرهم بعبادته وحده على سبيل الإجمال فصل بعضا من ذلك مما لايهتدى إليه إلا بهدى إلهى ووحى سماوى .

وأهم ذلك الصلاة التى تصلح النفوس وتنقيها من أدران الرذائل وتحليها بأنواع

الفضائل ، وروحها هو الإخلاص لله والخشوع لعظمته وسلطانه ، فإن فقدته كانت صوراً ورسوما لا تغنى فتيلا ، وهم ماتولوا ولا أعرضوا عن تلك الصور والرسوم إلى عصر التنزيل بل إلى يومنا هذا .

ثم الزكاة لما فيها من إصلاح شئون المجتمع ، وقد كان لهم ضروب من الزكاة منها مال خاص يؤدى لآل هارون ، وهو إلى الآن فى اللاويين (سبط من أسباطهم) ومنها مال المساكين ، ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض ، ومنها سبت الأرض وهو تركها فى كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل ما يخرج منها فى تلك السنة فهو صدقة .

(ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون) أى ثم كان من أمركم أن توليتم عن العمل بالميثاق ورفضتموه وأنتم فى حال الإعراض عنه وعدم الاهتمام بشأنه ، وفى قوله : « وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » مبالغة فى الترك المستفاد من التولى ، لأن الإنسان قد يتولى عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه ويؤدى ما يجب له ، فليس كل من تولى عن شىء يكون معرضا عنه .

وقد كان من توليهم وإعراضهم أن اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا مشرعين يحلون ويحرمون ، ويبيحون ويحظرون ، ويزيدون ما شاءوا من الشعائر والمناسك الدينية ، فكأنهم شركاء لله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ، كما كان من توليهم أن بخلوا بالمال فى الواجبات الدينية كالنفقة على ذوى القربى وأداء الزكاة ، وتركوا النهى عن المنكر إلى نحو ذلك مما يدل على الاستهتار بأمور الدين ، وقوله : «إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ » أخرج بعض من كانوا فى عهد موسى عليه السلام ممن أقام اليهودية على وجهها ، ومن كان فى عصر التنزيل أو بعده وأسلم كعبد الله بن سلاَم وأضرابه من المخلصين المحافظين على الحق بقدر الطاقة وفائدة ذكره عدم بخس العاملين حقهم ، والإشادة بذكرهم ، والإشارة إلى أن وجود القليل من الصالحين فى الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد وعم البلاء ، وقد جرت سنة الله بأن بقاء الأمة عزيزة

مرهوبة الجانب ، ذات سطوة و بأس ، إنما يكون بمحافظة السواد الأعظم فيها على الأخلاق الفاضلة والدأب على العمل الذى به تستحق العز والشرف .

بعد هـذا لا عجب فيما ترى من حلول الـكرب والبلاء بالمسلمين الذين فتنوا فى دينهم ودنياهم وهم غافلون لاهون لا يعتبرون ولا يذّكرون .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

شرح المفردات

السفك الصب والإراقة ، والتظاهر التعاون ، والإثم هو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم ، والعدوان تجاوز الحد فى الظلم .

المعنى الجملى

ذكّر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة بأهم ما أمروا به من إفراده تعالى بالعبادة والإحسان إلى الوالدين وذوى القربى ، ثم بين أنهم لم يأتمروا بذلك .

وفى هذه الآيات ذكرهم بأهم المنهيات التى أخذ عليهم العهد باجتنابها ، ثم نقضوا

الميثاق ولم ينتهوا ، والخطاب هناك للذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام ، وهو هنا للحاضرين فى عصر التنزيل ، إرشاداً إلى أن الأمة كالفرد يصيب خلفها أثر ما كان عليه سلفها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ما داموا على سنتهم ، يحتذون حذوهم ويجرون على نهجهم ، كما أن ما يفعله الشخص حين الصغر يؤثر فى قواه العقلية وأخلاقه النفسية حين الكبر ، والمشاهدة أكبر برهان على ذلك .

الإيضاح

(وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى وإذ أخذنا عليكم العهد : لا يريق بعضكم دم بعض ولا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم وأوطانهم ، وقد جعل غير الرجل كأنه نفسه ، ودمه كأنه دمه إذا اتصل به دينا أو نسبا ، إشارة إلى وحدة الأمة وتضامنها ، وأن ما يصيب واحداً منها فكأنما يصيب الأمة جمعاء ، فيجب أن يشعر كل فرد منها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم ، فالروح الذى يحيا به والدم الذى ينبض فى عرقه هو كدم الآخرين وأرواحهم ، لا فرق بينهم فى الشريعة التى وحدت بينهما فى المصالح العامة ، وهذا ما يومئ إليه الحديث « إنما المؤمنون فى تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

وقد يجوز أن يكون المعنى لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل قصاصا أو بالإخراج من الديار فتكونون كأنكم قد قتلتم أنفسكم ، لأنكم فعلتم ما تستحقون به القتل ، كما يقول الرجل لآخر قد فعل ما يستحق به العقوبة : أنت الذى جنى على نفسه .

(ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أى ثم أقررتم بهذا الميثاق أيها الحاضرون المخاطبون واعترفتم به ولم تنكروه بألسنتكم ، بل شهدتم به وأعلنتموه ، فالحجة عليكم قائمة — وقد يراد — وأنتم أيها الحاضرون تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق وقبوله ، وشهودهم الوحى الذى نزل به على موسى عليه السلام .

(ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) أى ثم أنتم بعد ذلك التوكيد فى الميثاق تنقضون العهد فتقتلون أنفسكم : أى يقتل بعضكم بعضا كما كان يفعل من قبلكم ، مع أنكم معترفون بأن الميثاق أخذ عليكم كما أخذ عليهم .

ومن حديث ذلك أن بنى قَيْنُقَاع من اليهود كانوا حلفاء الأَوْس وأعداء لإخوانهم فى الدين بنى قرَيْظة ، كما كان بنو النّضير حلفاء الْخَزْرَج ، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء يقتتلون ، ومع كل حلفاؤه ، وهذا ما نعاه الله على اليهود بقوله : « تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ » .

(وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب ، والعدوان كالإخراج من الديار .

(وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) أى وكانوا إذا أسر بعض العرب وحلفاؤهم من اليهود بعضا من اليهود أعدائهم واتفقوا على فداء الأسرى ، يفدى كل فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ، ثم يعتذرون عن هذا بأن الكتاب أمرهم بفداء أسرى ذلك الشعب المقدس ، فإن كانوا مؤمنين حقا بما يقولون ، فلم قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم والكتاب ينهاهم عن ذلك ؟ أفليس هذا إلا لعبا واستهزاء بالدين ؟

(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) أى أتفعلون ما ذكر فتؤمنون الخ . وذلك أن الله أخذ على بنى إسرائيل العهد فى التوراة ألا يقتل بعضهم بعضا ، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم ، وقال : أيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه وأعتقوه ــ لكنهم قتلوا وأخرجوا من الديار مخالفين العهد ، وافتدوا الأسرى على مقتضى العهد ، أفليس هذا إلا إيماناً ببعض الكتاب وكفرا ببعضه الآخر؟ وذلك منتهى ما يكون من الحماقة ، فإن الإيمان لا يتجزأ ، فالكفر ببعضه كالكفر بكله .

قال الأستاذ الإمام : فى التعبير عن المخالفة والمعصية بالـكفر دليل على أن من يقدم على الذنب لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله عنه وتحريمه له فهو كافر به ، وهذا هو الوجه فى الأحاديث الصحيحة نحو « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن » اهـ .

(فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) هذا وعيد من الله لهم على نقضهم الميثاق الذى جعلهم أمة واحدة ذات شريعة هى رباط وحدتهم بخزى عاجل فى هذه الحياة وعذاب آجل فى الآخرة .

وقد دلت المشاهدة على أن كل أمة تفسق عن أمر ربها وتطرح أوامر دينها وراءها ظهريا يتفرق شملها وينزل بها عذاب الهون جزاء فساد أخلاقها وكثرة شرورها .

أما من استقاموا على الطريقة وزكت نفوسهم وصلحت أحوالهم فلهم عند ربهم نعيم مقيم ، يرشد إلى ذلك قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(وما الله بغافل عما تعملون) فهو مجازيكم على ما اجترحتم من السيئات ، ولا يخفى ما فى هذا من وعيد شديد وزجر عظيم .

(أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) أى أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة ، فقدموا حظوظهم فى هذه الحياة على حظوظهم فى الحياة الأخرى بما أهملوا من الشرائع وتركوا من أوامرها التى يعرفونها كما يعرفون أبناءهم كالانتصار للحليف المشرك ومظاهرته على قومه الذين تجمعهم وإياه رابطة الدين والنسب ، وإخراج أهله من دياره ابتغاء مرضاته .

(فلا يخفف عنهم العذاب) يوم القيامة (ولاهم ينصرون) لأن أعمالهم قد سجلت عليهم الشقاء ، وأحاطت بهم الخطايا من كل جانب ، فسدت عليهم باب الرحمة ، وقطعت عنهم الفيض الإلهى ، فلا يجدون شافعا ينصرهم ، ولا وليا يدفع عنهم ما حل بهم من النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

شرح المفردات

قفاه به إذا أتبعه إياه ، وعيسى بالسريانية يسوع ومعناه السيد أو المبارك ، ومريم بالعبرية الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس ، والبينات الحجج الواضحة التى أوتيها عليه السلام من المعجزات ، وأيدناه أى قويناه ، وروح القدس أى الروح المقدس المطهر وهو جبريل عليه السلام الذى ينزل على الأنبياء ويقدس نفوسهم ويزكيها ، ويطلق عليه الروح الأمين كما قال نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، والغلف واحدها أغلف وهو الذى لا يفقه ما يقال له .

المعنى الجملى

جرت سنة الله فى البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن تأتيهم الرسل تقسو منهم القلوب ويذهب أثر الموعظة من الصدور ويفسقون عن أمر ربهم ويحرفون ما جاءهم من الشرائع بضروب من التأويل ، وينسون ما أنذروا به من قبل ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

من أجل هـذا كان الله تعالى يرسل الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإنذار فتقسو القلوب ، وقد كان الشعب الإسرائيلى أكثر الشعوب حظا فى عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم ، فليس لهم من العذر ما يسوغ نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها ، ولـكن كانوا يطيعون أهواءهم ، ويتبعون شهواتهم ، ويعصون رسلهم ، فنهم من كذبوه ، ومنهم من قتلوه .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى الـكتاب وقفينا من بعده بالرسل) أى ولقد أعطينا موسى الـكتاب المقدس وهى التوراة ، ثم أتبعنا من بعده رسولا بعد رسول مقتفين أثره ، فلم يمض زمن إلا كان فيه نبي أو أنبياء يأمرون وينهون ، فلا عذر لهم فى نسيان الشرائع أو تحريفها وتغيير أوضاعها .

ثم خص من أولئك الرسل عيسى عليه السلام فقال :

(وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) أى وأعطينا عيسى المعجزات الباهرة التى تدل على صدق نبوته وأنه موحى إليه من ربه ، وأيدناه بروح الوحى الذى يؤيد الله تعالى به أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم كما قال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْـكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » الآية وأرسلناه بعد ظهور كثير من الرسل ولم يكن حظه بينهم أحسن من حظ سابقيه .

ثم بين ماذا كان حظ الرسل من بنى إسرائيل فقال :

(أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟) أى أبلغ الأمر بكم أنكم كلما جاءكم رسول من رسلى بغير الذى تهوى نفوسكم استكبرتم عليهم تجبراً وبغياً فى الأرض ؟

(ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) أى فبعضا منهم تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام ، وبعضا تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام ، فلا عجب بعد هذا أن لم تؤمنوا

بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن العناد والجحود من طبعكم ، وسجية عرفت عنكم ، ولا غرابة فى صدور ما صدر منكم .

(وقالوا قلوبنا غلف) القائلون هم الذين كانوا منهم عصر التنزيل ، أى وقالوا قلوبنا مغطاة بأغشية خلقية مانعة من تفهم ماجئت به ، ونحو هذا قولهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » .

ثم رد عليهم وكذبهم فيما زعموا .

(بل لعنهم الله بكفرهم) أى ليس الأمر كما يدعون ، بل قلوبهم خلقت مستعدة على حسب الفطرة للنظر الذى يوصل إلى الحق ، لكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعا لأهوائهم

وقد ذكر اللعن وعلته جريا على سنة الله فى ربط المسببات بأسبابها ، وبيان أن الله لم يظلمهم بهذا ، بل هم ظلموا أنفسهم بالتمادى فى الكفر والعصيان .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سبق فقال :

(فقليلا ما يؤمنون) أى فهم يؤمنون إيمانا قليلا ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وتحريف بعضه الآخر أو ترك العمل به ، والذى آمنوا به كان قولا باللسان تكذبه الأعمال ، إذ لم يكن للإيمان سلطان على قلوبهم ، فيكون هو المحرك لإرادتهم ، وإنما يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة .

وقد يكون المعنى كما قال ابن جرير أنه لايؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به إلا القليل منهم ، فالمخالفة لم تغمر كل الشعب بل غمرت الأكثر منهم ونجا نفر قليل .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ،
فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ
وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

شرح المفردات

يستفتحون أى يستنصرون ، وشرى واشترى يستعملان حينا بمعنى باع وأخرى بمعنى ابتاع وأخذ ، والمراد هنا المعنى الأول ، والبغى فى الأصل الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ، ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شىء ، وباء رجع ، ومهين أى فيه إهانة وإذلال ، ووراء بمعنى سوى كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام : ما وراء هذا الكلام شىء .

الإيضاح

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين) وهذا مرتبط معنًى بقوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » أى وقالوا قلوبنا غلف وكذبوا لما جاءهم كتاب الخ وقوله : (مصدق لما معهم) أى موافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، وقوله : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى يستنصرون به على مشركى العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذى جاء به موسى ويخذل الوثنية التى تنتحلونها .

روى ابن جرير عن قتادة الأنصارى عن شيوخ منهم أنهم قالوا فينا وفيهم (فى الأنصار واليهود) نزلت هذه القصة ، كنا علوناهم دهراً فى الجاهلية ونحن أهل الشرك

وهم أهل الكتاب ، وكانوا يقولون إن نبيا الآن مبعثه قد أظل زمانه ، يقتلكم قتل عاد وإرَم ، فلما بعث رسول الله اتبعناه وكفروا به .

وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم من بينهم فحملهم ذلك على الكفر به جحوداً وعناداً ، فسجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته ، لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم .

(بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) أى بئس الشيء الذى باعوا به أنفسهم وبذلوها . الكفر بما أنزل الله ، وهو الكتاب المصدق لما معهم ، أى أنهم اختاروا الكفر على الإيمان وبذلوا أنفسهم فيه ، وكأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع ، ثم بين علة ذلك فقال :

(بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أى أنهم كفروا لمحض العناد الذى هو نتيجة الحسد ، وكراهة أن ينزل الله الوحى من فضله على من يختاره من عباده ، ولا بغى أقبح من بغى من يريد الحجر على الله ، فلا يرضى أن يجعل الوحى فى آل إسماعيل كما جعله من قبل فى آل إسحاق .

(فباءوا بغضب على غضب) أى فرجعوا وهم مستوجبون لغضبين : غضب الكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم فوق الغضب الذى استحقوه من قبل بإعنات موسى عليه السلام والكفر به .

ثم بيّن عاقبة أمرهم فقال :

(وللكافرين عذاب مهين) أى ولهم بسبب كفرهم عذاب يصحبه إهانة وإذلال فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبما يصيبهم من الخزى والنكال وسوء الحال ليكونوا عبرة لمن يخلفهم من بعدهم ، وأما فى الآخرة فبخلودهم فى جهنم وبئس المصير.

ثم ذكر ما يكون منهم لدى الحوار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

(وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى وإذا قال النبى

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليهود المدينة وما حولها : آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله ، قالوا نحن دائبون على الإيمان بما أنزل على أنبياء بنى إسرائيل كالتوراة وغيرها .

(ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقا لما معهم) أى وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن الذى جاء مصدقا لها ، وهو الحق الذى لاشك فيه ، وكيف يكفرون به وهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل ؟

(قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟) أى قل لهم إلزاما للحجة بعدما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه . إن كنتم صادقين حقاً فى اتباعكم ما أنزل الله على أنبيائكم ، فلم قتلتموهم ؟ وليس فى دينكم الأمر بالقتل بل فيه شديد العقاب على القتل مطلقا فضلا عن قتل الأنبياء ، فما هذا منكم إلا تناقض بين الأقوال والأفعال .

وقد نسب القتل إليهم والقاتل أسلافهم لما تقدم غير مرة من أن مثل هذا يقصد به بيان وحدة الأمة وتكافلها ، وأنها فى الطبائع والأخلاق المشتركة كالشخص الواحد ، فما يصيبها من حسنة أو سيئة فإنما مصدره الأخلاق الغالبة عليها ، فما حدث منهم كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع فيها الآخرون الأولين : إما بالعمل بها ، وإما بترك الإنكار لها ، فالحجة تقوم على الحاضرين بأن أسلافهم الغابرين قتلوا الأنبياء فأقروهم على ذلك ولم يعدوه خروجا من الدين ولا رفضا للشريعة ، وفاعل الكفر ومجيزه سواء .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

شرح المفردات

البينات هى الآيات والدلائل التى تدل على صدقه والمعجزات التى تؤيد نبوّته كالعصا واليد ، العجل هو الذى صنعه لهم السامرى من حليهم وجعلوه إلها وعبدوه ، وأشرب قلبه كذا أى حل محل الشراب كأن الشىء المحبوب شراب يساغ فهو يسرى فى قلب المحب ويمازجه كما يسرى الشراب العذب البارد فى اللهات ، وحقيقة أشربه كذا جعله شاربا له ، والمراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، خالصة أى خاصة بكم ، تمنوا الموت أى تشوفوا له واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه وتود المصير إليه ، بِمُزَحْزِحِهِ أى بمنجيه من العذاب ، والبصير العالم بكنه الشىء الخبير به .

المعنى الجملى

عدد سبحانه فى الآيات السالفة ما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم ، وذكر ما قابلوها به من الكفران ، وهنا ذكر أن الآيات البينات الدالة على صدق دعوة موسى ووحدانية الله وعظيم قدرته لم تزدهم إلا انهماكا فى الشرك وتوغلا فى ضروب الوثنية ، فالنعم التى أسبغها عليهم لم يكن لها من شكر إلا اتخاذ العجل إلها يعبدونه من دون الله ، فكيف يعتذرون عن عدم الإيمان بمحمد بأنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل إليهم .

وهذا دليل على قسوة قلوبهم وفساد عقولهم ، فلا أمل فيهم لهداية ولا مطمع

تفكر وتأمل بعد أن اختل الوجدان وضعف الجنان . وهذه الآيات البينات التى ذكرت هنا كانت فى مصر قبل الميعاد الذى نزلت فيه التوراة ، وما ذكر من النعم هناك كان فى أرض الميعاد .

الإيضاح

(ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أى ومن عظيم كفرانكم للنعم أن موسى قد جاء بالأدلة القاطعة والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته ، فخالفتم ذلك وعصيتم أمره وعبدتم عجل السامرى من بعد ذلك ، فهذا ظلم ووضع للشىء فى غير موضعه اللائق به ، وأى ظلم أعظم من الإشراك بالله بعبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) قد سبق شرح مثل هذا من قبلُ سوى أنه قال هناك « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ » وهنا قال : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، فأمرهم هناك بالحفظ وأمرهم هنا بالفهم والطاعة ، والعبارتان متقاربتان فى المراد .

(قالوا سمعنا وعصينا) أى أنهم قبلوا الميثاق وفهموه ، لكنهم لم يعملوا به وخالفوه ، وليس المراد أنهم نطقوا بقولهم (سمعنا وعصينا) بل كانوا بمثابة من قال ذلك ، والعرب تعبر عن حال الإنسان وغيره من الحيوان والجماد بقول تحكيه عنه يومئ إلى ما يجول فى قرارة نفسه ويدور بخلده فيكون هذا القول تَرْجُمانا عنه .

(وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) أى صار حب العجل نافذا فيهم نفوذ الماء فيما يدخل فيه ، وقوله : بِكُفْرِهِمْ ؛ أى أن سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية فى مصر ، فرسخ الكفر فى قلوبهم بتمادى الأيام وورثه الخلف عن السلف .

(قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) أى قل توبيخا لليهود الحاضرين

بعد أن علموا أحوال رؤسائهم السالفين الذين يقتدون بهم ويحتذون حذوهم فى كل ما يأتون وما يذرون : إن كنتم مؤمنين بالتوراة حقا ، فبئس هذا الإيمان الذى يأمر بهذه الأعمال التى أنتم تفعلونها كعبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق ، فهذه دعوى لا تقبل منكم ، بل يجب القطع بعدم وجودها ، بدليل ما يصدر عنكم من الأعمال التى يستحيل أن تكون أثرا للإيمان .

وقد سيقت هاتان الآيتان ردا على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أنهم مؤمنون بشريعة لا يطالبهم الله بالإيمان بغيرها ، فهى حجة عليهم تشرح طبيعة الإيمان وأثره فى المؤمن .

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى إن صدق قولكم وصحت دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، وفى أنكم شعب الله المختار ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودات ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذى لا ينازعكم فيه أحد ، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء . وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال معبرين بألسنتهم عما يجول فى صدورهم من صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين فى الدار الآخرة ، فقد جاء فى الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنةُ واقترابُها طيبةٌ وباردٌ شرابُها

وأن عمار بن ياسر فى حرب صفين قال :

غداً نلقى الأحبه محمداً وصحبه

فإن لم تتمنوه ، بل كنتم شديدى الحرص على هذه الحياة ، فما أنتم بصادقى الإيمان.

وهذه حجة تنطبق على الناس عامة ، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزانا يزنون به دعواهم اليقين بالإيمان والقيام بحقوق الله ، فإن ارتاحت نفوسهم لبذل

أرواحهم فى سبيل الله والذود عن الدين كانوا مؤمنين حقا ، و إن ضنوا بها وكانوا شديدى الحرص على الحياة إذا جد الجد ودعا الداعى كانوا بعكس ما يدّعون .

(ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) أى ولن يقع منهم هذا التمنى بحال ، لأنهم يعرفون ما اجترحته أنفسهم من المعاصى والذنوب التى يستحقون بها العقوبة كتحريف التوراة والكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم مع البشارة به فى كتابهم .

والعرب تسند الفعل إلى الأيدى لأن أكثر الأعمال تزاول بها ، ويجعلون المراد بها الشخص .

(والله عليم بالظالمين) أى والله يعلم أنهم ظالمون فى حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم ، وأن غيرهم من الشعوب محروم منها ، ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد .

(ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى أنهم يحبون الإخلاد إلى الأرض و يعملون كل ما يوصلهم إلى البقاء ، فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون ، وتلك سيرتهم فى كل زمان و إن كان الكلام مع من كان فى عصر التنزيل .

وهكذا القرآن يرسل عليهم سيلا من الحجاج فيشاغبون و يعاندون اعتزازاً بشعبهم واغتراراً بكتابهم .

(ومن الذين أشركوا) أى أنهم أحرص من جميع الناس حتى من الذين أشركوا ، وفى هذا توبيخ و إيلام عظيم لهم ، إذ أن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا يعرفون إلا هذه الحياة ، فحرصهم عليها ليس بالغريب ، أما من يؤمن بكتاب و يقرّ بالجزاء فمن حقه ألا يكون شديد الحرص عليها .

(يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) أى يتمنى كل منهم أن يبقى على قيد الحياة ألف سنة أو أكثر ، لأنه يتوقع سخط الله وعقابه ، فيرى أن الدنيا على ما فيها من الآلام والأكدار خير له مما يستيقن وقوعه فى الآخرة ، والعرب تضرب الألف مثلا للمبالغة فى الكثرة .

(وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) أى وما بقاؤه فيها بمنجيه ولا بمبعده من العذاب المعد له ، فإن العمر مهما طال فهو منتهٍ لا محالة .

(والله بصير بما يعملون) أى والله عليم بخفيات أعمالهم ، وبجميع ما يصدر منهم وهو مجازيهم به ، فطول العمر لا يخرجهم من قبضته ولا ينجيهم من عقابه ، فالمرجع إليه والأمر كله بيديه .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

المعنى الجملى

ذكر قبل هـذه الآيات معاذير لليهود اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الآيات البينات ، كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم فلا حاجة لهم بهداية غيره ، فنقض دعواهم وألزمهم الحجة ، وقولهم إنهم ناجون حتما فى الآخرة لأنهم شعب الله وأبناؤه فأبطل مزاعمهم ودحض حججهم .

وهنا ذكر تعلّة أخرى هى أعجب من كل ما تقدم وفنّدها كما فنّد ما قبلها ، تلك هى قولهم : إن جبريل الذى ينزل على محمد بالوحى عدوهم ، فلا يؤمنون بما يجىء به منه ، وقد أثر عنهم عدة روايات تشرح هذه المقالة .

منها أن أحد علمائهم وهو عبد الله بن صوريا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الملَك الذى ينزل عليه بالوحى ، فقال : هو جبريل، فقال ابن صوريا : هو عدو اليهود لأنه أنذرهم بخراب بيت المقدس فكان ما أنذر به .

ومنها أن عمر بن الخطاب دخل مدارسهم فذكر جبريل فقالوا ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وأن ميكائيل ملك الرحمة ينزل بالغيث والرخاء .

ولا شك أن هـذا منهم دليل على خطل الرأى وعدم التدبر ، وإنما ذكره الكتاب الكريم ليستبين للناس حجج أهل الكتاب ويعرفوا مقدار مرائهم وسخفهم فى جدلهم وأنهم ضعاف الأحلام قليلو التبصر فى عواقب ما يقولون .

الإيضاح

(قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) أى قل لهم أيها النبى حاكيا لهم عن الله : من كان عدوا لجبريل ، فإن من أحوال جبريل أنه نزل القرآن على قلبك ، أى فهو عدو لوحى الله الذى يشمل التوراة وغيرها ، ولهدى الله لخلقه ، ولبشراه للمؤمنين ، وقوله : بإذن الله يرشد إلى أن مناجاته لروحك ومخاطبته قلبك إنما كان بأمر الله لا افتياتا منه ، فعداوته لا تمنع من الإيمان بك ولا تصلح أن تكون عذرا لهم ، إذ القرآن من عند الله لا من عنده .

(مصدقا لما بين يديه) أى هو موافق للكتب التى تقدمته فيما يدعو إليه من توحيد الله والسير على السنن القويم .

(وهدى) أى أنزله الله هاديا من الضلالات والبدع التى طرأت على الأديان .

(وبشرى للمؤمنين) أى أنه بشرى لمن آمن به ، فليس لكم أن تتركوها لأجل أن جبريل جاء منذرا بخراب بيت المقدس ، لأنه إنما أنذر المفسدين .

وكل هذه حجج أقامها لبيان سخفهم وكمال حمقهم ، وللإرشاد إلى أنها لا تصلح أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله جامع لكل هذه الصفات الشريفة .

(من كان عدوا لله) العدو ضد الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، وعداوة الله مخالفة أوامره وعدم القيام بطاعته ، والكفر بما ينزله لهداية الناس على لسان رسله .

(وملائكته) بكراهة العمل بما يعهد به إليهم ربهم من رسالات يبلغونها للناس .

(ورسله) بتكذيبهم فى دعوى الرسالة مع قيام الأدلة على صدقها ، أو بقتل بعضهم كما فعلوا مع زكريا ويحيى .

(وجبريل وميكال) بادعاء أن الأول يأتى بالآيات والنذر ، ومن عاداه فقد عادى ميكائيل ، لأن الداعى إلى محبتهم وعداوتهم واحد .

(فإن الله عدو للكافرين) أى من عادى الله وعادى هؤلاء المقربين عنده ، فالله عدو له ، لأنه كافر به ومعادٍ له ، وهو الظالم لنفسه حين دعاه فلم يجب .

وفى هذا من شديد الوعيد ما لا يخفى ، إذ فيه تصريح بأنهم أعداء الحق وأعداء كل من يدعو إليه ، ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب السماوية لأن المقصد من الجميع واحد وهو هداية الناس وإرشادهم إلى سبل الخير ، ومعاداة محمد صلى الله عليه وسلم كمعاداة سائر الأنبياء لأن رسالتهم واحدة والمقصد منها متحد .

(ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) لاقتران نظرياتها الاعتقادية بأدلتها ، وأحكامها العملية بوجوه منافعها ، فلا تحتاج إلى دليل آخر يوضحها ، فهى كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لايحتاج إلى ما يظهره .

(وما يكفر بها إلا الفاسقون) الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسدا لمن ظهر الحق على يديه عناداً ومكابرة منهم .

(أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟) النبذ طرح الشىء وإلقاؤه ، والعهود هنا هى عهودهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، والفريق العدد القليل ، وإذ كان لفظ الفريق يوهم قلة العدد مع أن الناقضين للعهد هم الأكثر أضرب عنه وقال :

(بل أكثرهم لا يؤمنون) لأنهم لا عهود لهم ، وهذا من إخبار الغيب إذ أن أكثر اليهود ما آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ولن يؤمنوا به فمثل هذا الحكم لا يصدر إلا ممن يعلم خفيات الأمور .

والخلاصة — أن الله سبحانه بين فى هذه الآية حالين لأهل الكتاب : أولاهما أنه لا يوثق بهم فى شىء لما عرف عن كثير منهم من نقض العهود فى كل زمان ، ثانيتهما أنه لا يرجى إيمان أكثرهم لأن الضلال قد استحوذ عليهم وجعلهم فى طغيانهم يعمهون .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

شرح المفردات

كَفَرَ أى سحر ، والسحر لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ، وسحره خدعه ، وجاء فى كلامهم عين ساحرة وعيون سواحر ، وفى الحديث « إن من البيان لسحرا » والإنزال الإلهام ، وسمى بذلك لأنهما ألهماه واهتديا إليه من غير معلم ، والملكان

رجلان صاحبا هيبة ووقار يجلهما الناس ويحترمونهما ، وبابل بلد بالعراق لها شهرة تاريخية قديمة والخلاق النصيب والحظ ، وشروا أى باعوا .

المعنى الجملى

بيّن سبحانه فى هذه الآيات حالا من أحوالهم هى علة ما يصدر عنهم من جحود وعناد ومعاداة للنبى صلى الله عليه وسلم ، هى أن فريقا منهم نبذوا كتاب الله الذى به يفخرون ، حين جاء الرسول بكتاب مصدق لما بين أيديهم ، فإن ما فى كتابهم من البشارة بنبىّ يجىء من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على هذا النبى الكريم .

وليس المراد أنهم نبذوا الكتاب جملة وتفصيلا ، بل نبذوا منه ما يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به واتباعه ، ولا شك أن ترك بعضه كترك كله ، إذ أنه يذهب باحترام الوحى ويفتح الباب لترك الباقى .

وهذا الجحود لم يكن بضائر للنبى صلى الله عليه وسلم ولا لدعوته فقد قبلها واهتدى بها كثير من اليهود ومن غيرهم .

وحين نبذوه اشتغلوا بصناعات وأعمال صادة عن الأديان من صنع شياطين الإنس والجن ، فاشتغلوا بالسحر والشعوذة والطِّلَّسْمات التى نسبوها إلى سليمان وزعموا أن ملكه كان قائما عليها .

وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين فصدقوهم فيما زعموا منها ، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر ، ولا يزال حال الدجالين من المسلمين إلى اليوم يتلون العزائم ويخطون خطوطاً ويعملون طلسمات يسمونها خاتم سليمان ، وعهوداً يزعمون أنها تحفظ من يحملها من اعتداء الجن ومس العفاريت .

وإنما قص القرآن علينا هذا القصص للذكرى ، وليبين لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر فكان صادا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود ، ومن ثم لم يهتدوا بالنبى الذى بشر به كتابهم .

الإيضاح

(ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) أى أنه حين جاء النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب مصدق للتوراة التى بين أيديهم بما فيه من أصول التوحيد وقواعد التشريع وروائع الحكم والمواعظ وأخبار الأمم الغابرة — نبذ فريق من اليهود كتابهم وهو التوراة ، لأنهم حين كفروا بالرسول المصدق لما معهم فقد نبذوا التوراة التى فيها أن محمدا رسول الله ، وأهملوها إهمالا تاما كأنهم لا يعلمون أنها من عند الله .

وقد جعل تركهم إياها و إنكارهم لها إلقاء لها وراء الظهر ، فان من يلقى الشيء وراء ظهره لا يراه فلا يتذكره .

(واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) أى اتبع فريق من أحبار اليهود وعلمائهم الذين نبذوا التوراة تجاهلا منهم بما هم به عالمون — اتبعوا السحر الذى تلته الشياطين فى عهد سليمان بن داود وعملوا به ، وذلك هو الخسران المبين .

وقد زعموا أن سليمان هو الذى جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه ثم استخرجها الناس وتناقلوها ، وهذا من مفتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبا و بهتانا .

(وما كفر سليمان) أى وما سحر ، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر ، إذ كونه نبيّا ينافى كونه ساحرا ، فالسحر خداع وتمويه ، والأنبياء مبرءون من ذلك .

(ولكن الشياطين كفروا) أى ولكن الشياطين من الأنس والجن الذين نسبوا إليه ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا .

(يعلمون الناس السحر) قد جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع كثيرة ولا سيما فى قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخييل للأعين حتى ترى

ما ليس بكائن كائنا كما قال « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » وقال فى آية أخرى « فَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ » .

والآية نص صريح على أن السحر كان يعلم ويلقن ، والتاريخ يؤيد هذا .

والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفى يعرفه بعض الناس ويجهله الكثير منهم ، ومن ثم يسمون العمل به سحرا لخفاء سببه عليهم ، وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصىّ بصور الحيات والثعابين حتى خيّل إلى الناس أنها تسعى .

وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة المعاش أن يتكلموا بأسماء غريبة وألفاظ مبهمة اشتهر بين الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن ليوهموهم أن الجن يستجيبون دعاءهم ويسخرون لهم ، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب .

ولمثل هذا تأثير فى إثارة الوهم دلت التجربة على وجوده ، وهو يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يعمل له السحر .

(وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) فى الملكين قراءتان فتح اللام وكسرها ، وهما رجلان شبها إما بالملائكة لانفرادهما بصفات محمودة وقد جرت العادة أن يقولوا هذا ملك وليس بإنسان ، وإما بالملوك كما يقال لمن كان سيدا عزيزا يظهر الغنى عن الناس : هذا من الملوك ، وكان الناس فى عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم لا يقصدون للفصل فى شئونهم الروحية إلا أهل السمت والوقار الذين يلبسون لباس أهل الصلاح والتقوى .

وظاهر الآية يدل على أن ما أنزل على الملكين غير السحر لكنه من جنسه ، وقد ألهماه واهتديا إليه بلا أستاذ ولا معلم ، وقد يسمى مثل هذا وحيا كما فى قوله « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » وقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » .

(وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) أى وما يعلم الملكان

أحدا حتى ينصحاه ويقولا له : إنما نحن ابتلاء من الله عز اسمه ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم ولم يعمل به ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به ، وفى هذا إيماء إلى أن تعلم السحر وكل مالا يجوز اتباعه والعمل به ليس محظورا ، وإنما الذى يحظر ويمنع هو العمل به فقط .

وإنما كانا يقولان ذلك إبقاء على حسن اعتقاد الناس فيهما ، إذ كانا يقولان إنهما ملكان ، كما نسمع الآن من الدجالين الذين يحترفون مثل ذلك لمن يعلمونهم الكتابة للحب والبغض : نوصيك بألا تكتب هذا الجاب امرأة إلى حب غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر ، بل تجعل ذلك للمصلحة العامة كالحب بين الزوجين والتفريق بين عاشقين فاسقين ، وهذا منهم إيهام بأن علومهم إلهية وصناعتهم روحية .

(فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى كانوا يتعلمون منهما ماوضع لأجل التفريق بين الزوجين ، مما يسمى الآن (كتاب البغضة) .

والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر ـ أمؤثر بطبعه أو بسبب خفى أو بخارق من خوارق العادات ، أم غير مؤثر ؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه أتمائم وكتابة هو أم تلاوة رُقى وعزائم ، أم أساليب سعاية ، أم دسائس تنفير ونكاية ، أم تأثير نفسانى ، أم وسواس شيطانى ؟ فأى ذلك أثبته العلم كان تفصيلا لما أجمله القرآن ، ولا نتحكم فى حمله على نوع منها ، ولو علم الله الخير فى بيانه لبينه ، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم فى العلم ، فهو الذى يجلى الغامض ويكشف الحقائق .

(وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله) أى أن هذين لم يعطيا شيئاً من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله بها مسبباتها ، فاذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فانما ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

(ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) من قبل أنه سبب فى إضرار الناس ، وهذا

ممـا يعاقب الله عليه ، ومن عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ، ولا نفع لهم فيه فانا نرى منتحلى هـذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم ، وذلك حالهم فى الدنيا ، فما بالك بهم فى الآخرة يوم يجزى كل عامل بما عمل .

(ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) أى أنهم عالمون بأن من اختار هذا وقدمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التى توصل إلى السعادة فى الدارين فليس له حظ فى الآخرة ، لأنه قد خالف حكم التوراة التى حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة مـن اتبع الجن والشياطين والـكهان كعقوبة عابدى الأصنام والأوثان .

(ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) أى ولبئس ما باعوا به أنفسهم السحر ، وعبر عن بيع الإيمان ببيع النفس ، لأنها إنما خلقت لمعرفة الدين والعمل به أى أنهم لو كانوا يعلمون حرمة السحر علما يصدر عن اعتقاد له أثر فى النفس و يصدقون بما توعد به مرتكبه من العقوبة — لما ارتكبوه ولا أصروا عليه ، لـكنهم خانهم هذا النوع من العلم واكتفوا بعلم مبهم لا أثر له فى النفس فتسرب إليهم كثير من التأويل والتحريف لنصوص التوراة .

وهذا هو ما يفعل مثله بعض المسلمين اليوم ، إذ ينتهكون بعض حرمات الدين بمثل تلك التأويلات ، فيمنعون الزكاة بحيلة ، و يأكلون أموال الناس بحيلة أخرى ، و يشهدون الزور بحيلة ثالثة وهكذا .

(ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) أى ولو أنهم آمنوا الإيمـان الحق بكتابهم ، وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر باتباعه ، واتقوا الله بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه — لـكان هذا الثواب العظيم الذى ينتظرونه من الله جزاء على أعمالهم الصالحة خيراً لهم مـن كل ما يتوقعون من المنافع والمصالح الدنيوية .

(لو كانوا يعلمون) أى أنهم ليسوا على شىء من العلم الصحيح ، إذ لو كان

كذلك لظهرت نتائجه فى أعمالهم ، ولآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم واتبعوه وصاروا من المفلحين ؛ لكنهم يتبعون الظن و يعتمدون على التقليد ؛ ومن جرّاء هذا خالفوا الكتاب وساروا وراء أهوائهم وشهواتهم فوقعوا فى الضلال البعيد .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

شرح المفردات

راعنا أى راعنا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ، وانظرنا أى راقبنا وأمهلنا وانتظر ما يكون من شأننا ، والمودة محبة الشيء وتمنى حصوله .

المعنى الجملى

هذا خطاب وجه إلى المؤمنين فى شأن له اتصال باليهود ، و به انتقل من الأحاديث الخاصة بهم إلى حديث مشترك بينهم و بين المؤمنين والنصارى فى أمر من أمور الدين .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا) نهى الله الصحابة عن كلة كانت تدور على ألسنتهم حين خطابهم النبي صلى الله عليه وسلم وهى كلة (راعنا) ومعناها راعنا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لنفهمه عنك ، وانظرنا أى راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا فى حفظ ما تلقيه علينا وفهمه .

وسبب نهيهم عنها أن اليهود لما سمعوها افترصوها وصاروا يخاطبون بها النبى صلى الله عليه وسلم لاوين بها ألسنتهم لموافقة جَرْسِهَا العربى لكلمة (راعينو) العبرية التى معناها (شرير) فأرشد الله نبيه الكريم لذلك وأمر أصحابه أن يقولوا (انظرنا) وهى خير منها وأخف لفظا وتفيد معنى الإنظار والإمهال ، كما تفيد معنى المراقبة التى تستفاد من النظر بالعين ، إذ تقول: نظرت الشىء ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيته .

(وللكافرين عذاب أليم) الكافرون هنا هم اليهود ، وفى التعبير به إيماء إلى أن ما صدر منهم من سوء الأدب فى خطابه صلى الله عليه وسلم كفر لا شك فيه ، لأن من يصف النبى صلى الله عليه وسلم بأنه شرير فقد أنكر نبوته وأنه موحى إليه من قبل ربه ، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب الأليم .

قال الأستاذ الإمام : إن هذا التأديب ليس خاصا بمن كان فى عصره من المؤمنين بل يعم من جاء بعدهم أيضاً ، فهذا كتاب الله الذى كان يتلوه عليهم وكان يجب عليهم الاستماع له والإنصات لتدبره — هو الذى يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شىء ، وهو كلام الله الذى به كان الرسول رسولا تجب طاعته والاهتداء بهديه — فما هذا الأدب الذى يقابله به الأكثرون ؟ إنهم يلغطون فى مجلس القرآن فلا يستمعون ولا ينصتون ، ومن أنصت واستمع فانما ينصت طربا بالصوت واستلذاذا بتوقيع نغمات القارئ ، وإنهم ليقولون فى استحسان ذلك واستجادته ما يقولون فى مجالس الغناء ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق ولا يلتفتون إلى شىء من معانيه إلا ما يرونه مدعاة لسرورهم فى مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والأمانة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذى ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها ؟ « أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَالَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ » اهـ .

(ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) أى أن الذين عرفتم شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدة لكم لا يودون أن ينزل عليكم خير من ربكم ، والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهداية العظمى، به جمع الله شملكم ووحد شعوبكم وقبائلكم وطهر عقولكم من زيغ الوثنية وأقامكم على سنن الفطرة ، وكذلك المشركون إذ يرون فى نزول القرآن على طريق التتابع الوقت بعد الوقت قوة للاسلام ورسوخا لقواعده وتثبيتا لأركانه وانتشارا لهديه ، وهم يودون أن تدور عليكم الدوائر، وينتهى أمركم ويزول دينكم من صفحة الوجود .

(والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى أن حسد الحاسد يدل على أنه ساخط على ربه معترض عليه لأنه أنعم على المحسود بما أنعم ، والله لا يضيره سخط الساخطين ، ولا يحول مجارى نعمته حسد الحاسدين ، فهو يختص من يشاء برحمته متى شاء ، وهو ذو الفضل العظيم على من اختاره للنبوة وهو صاحب الإحسان والمنة ، وكل عباده غارق فى بحار نعمته ، فلا ينبغى لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه وفضل أوتيه من عند ربه .

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

شرح المفردات

النسخ فى اللغة الإزالة يقال نسخت الشمس الظل أى أزالته ، والإنساء إذهابها من ذاكرة النبى صلى الله عليه وسلم بعد تبليغها إياه ، والولى القريب والصديق ، والنصير المعين ، والفارق بينهما أن الولى قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون أجنبيا عمن ينصره ، والسؤال الاقتراح المقصود به التعنت ، وبدل وتبدل واستبدل: جعل شيئاً موضع آخر ، وضل : عدل وجار ، والسواء من كل شىء الوسط ومنه قوله « فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » والسبيل : الطريق .

المعنى الجملى

روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود ، ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غداً ، فقد أمر فى حد الزانى بإيذاء الزانيين باللسان حيث قال « فَآذُوهُمَا » ثم غيّره وأمر بإمساكهن فى البيوت حيث قال « فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ » ثم غيّره بقوله « فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » .

فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً ، ومقصدهم من ذلك الطعن فى الدين ليضعفوا عزيمة من يريد الدخول فيه وينضوى تحت لوائه .

الإيضاح

(ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) النسخ فى لسان الشرع : بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة ، وحكمته أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة الناس ، وهى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فاذا شرع حكم فى وقت كانت الحاجة إليه ماسة ثم زالت الحاجة فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق

الوقت الآخر فيكون خيراً من الأول أو مثله فى فائدته للعباد ، وما مثل ذلك إلا مثل الطبيب الذى يغير الأغذية والأدوية باختلاف الأزمنة والأمزجة ، والأنبياء صلوات الله عليهم هم مصلحو النفوس يغيرون الأعمال الشرعية والأحكام الخلقية التى هى للنفوس بمثابة العقاقير والأدوية للأبدان ، فما يكون منها مصلحة فى وقت قد يكون مفسدة فى وقت آخر .

ومعنى الآية — ما نغيّر حكم آية أو ننسيكه إلا أتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب أو مثله فيه .

ونسخ الحكم إما أن يكون بأيسر منه فى العمل كما نسخت عدة المتوفى عنها زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ، وإما بمساو له كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة ، وإما بأشق منه ويكون ثوابه أكثر كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين ، ثم أقام الدليل على إمكان النسخ فقال :

(ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره من المؤمنين الذين ربما كان يؤذيهم ما كان يعترض به اليهود وغيرهم على النسخ ، وضعيف الإيمان يؤثر فى نفسه أن يعاب ما يأخذ به ، فيخشى عليه من الركون إلى الشبهة أو تدخل فى قلبه الحيرة ، فجاء ذلك تثبيتا لهم وتقوية لإيمانهم ، ببيان أن القادر على كل شىء لا يستنكر عليه نسخ الأحكام ، لأنها مما تتناولها قدرته ثم أقام دليلا آخر فقال :

(ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) أى أن الله تعالى له ملك السموات والأرض وهما تحت قبضته والعباد أهل مملكته وطاعته ، عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام ويقرر ما شاء منها على حسب ما يرى من الفائدة .

(وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) أى ناصركم ومعينكم هو الله وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به ، وليس فى استطاعته أن يلحق بكم أذى .

(أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أى أتريدون أن تسألوا رسولكم أن يجيئكم بآيات بينات فوق ما جاءكم به فيكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا موسى ما لا يجوز سؤاله تبرما وتعنتا كقولهم « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » .

وفى هذا نصح للمسلمين أن يعملوا بما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم وينتهوا عما نهاهم عنه ولا يطلبوا منه غير ماجاءهم به، ثم أتبع التحذير بالوعيد فقال :

(ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) أى ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة على حسب المصالح ويطلب غيرها تعنتا وعناداً للنبى صلى الله عليه وسلم فقد اختار الكفر على الإيمان ، واستحب العمى على الهدى ، وبعد عن الحق والخير ، ومن حاد عن الحق وقع فى الضلال « فَماذَا بَعْدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلاَلُ »

وسبب نزول هذه الآية أن رافع بن خزيمة ووهب بن زيد قالا للنبى صلى الله عليه وسلم : أئتنا بكتاب من السماء نقرؤه وفجر الأنهار نتبعك .

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

شرح المفردات

العفو ترك العقاب على الذنب كما قال « إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً » والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه ، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب ، وأمر الله نصره ومعونته .

إجمال المعنى

بعد أن نهى المؤمنين فى الآيات السالفة عن الاستماع لنصح اليهود وعدم قبول آرائهم فى شىء عن أمور دينهم — ذكر هنا وجه العلة فى ذلك وهى أن كثيراً منهم يودون لو ترجعون كفارا حسداً لكم ولنبيكم ، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبى صلى الله عليه وسلم والكيد له بنقض ما عاهدهم عليه ، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام ويتمنون أن تحرموا منها .

وقد كان لأهل الكتاب حيل فى تشكيك المسلمين فى دينهم ، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره كى يتأسى بهم بعض ضعاف الإيمان من المسلمين ، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين ليشككوهم فى دينهم .

الإيضاح

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) أى تمنى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوكم عن توحيد الله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم و يرجعوكم كفارا كما كنتم ، حسدا لكم ، وفى هذا إشارة إلى أن النصح الذى يشيرون به منشؤه الحسد وخبث النفوس وسوء الطوية والجمود على الباطل — لا الغيرة على الحق وصرف الهمة فى الدفاع عنه .

(من بعد ما تبين لهم الحق) أى من بعد أن ظهر لهم بساطع الأدلة أن محمدا على الحق بما جاء به من الآيات التى تنطبق على ما يحفظونه من بشارات كتبهم بنبى يأتى آخر الزمان .

(فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) أى فعاملوهم بأحاسن الأخلاق من العفو عن مذنبهم بترك عقابه ، والصفح عنه بترك لومه وتعنيفه حتى يأتى نصر الله لكم بمعونته وتأييده ، وقد يكون المعنى — حتى يأتى أمر الله ونصره وقد تحقق ذلك بقتل بنى قريظة

وإجلاء بنى النضير من المدينة بعد أن غدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين بعد أن عفا عنهم وصفح مرات كثيرات ، وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة ، لأن الصفح لا يكون إلا من القادر ، فكأنه يقول لهم : لا تغرنكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم ، فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله ، ولهم العزة ما ثبتوا عليه .

ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله :

(إن الله على كل شىء قدير) أى فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى ، ويثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتتغلبوا على من يناوئكم ويظهر لكم العدوان اغترارا بكثرته واعتزازا بقوته « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

ثم ذكر سبحانه بعض الوسائل التى تحقق النصر الذى وعدوا به فقال :

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) لما فى الصلاة من توثيق عرا الإيمان ، وإعلاء الهمة ، ورفعة النفس بمناجاة الله ، وتأليف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها ، وتعارفهم فى المساجد ، وبهذا ينمو الإيمان ، وتقوى الثقة بالله ، وتتنزه النفس أن تأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتكون أقوى نفاذا فى الحق ، فتكون جديرة بالنصر .

ولما فى الزكاة من توكيد الصلة بين الأغنياء والفقراء ، فتتحقق وحدة الأمة وتكون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم باقى الأعضاء بالحمى والسهر .

وقد جرت سنة القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة ، لما فى الصلاة من إصلاح حال الفرد ، ولما فى الزكاة من إصلاح حال المجتمع ، إلى أن المال شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه فى سبيل الله تأييدا لدينه وإعلاء لكلمته وبعد أن أبان أن الصلاة والزكاة من أسباب النصر فى الدنيا أردف هذا ببيان أنهما من أسباب السعادة فى الآخرة أيضا فقال :

(وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أى وما تعملوا من خير تجدوا جزاءه عند ربكم يوم توفى كل نفس جزاء عملها بالقسطاس المستقيم ، ونحو الآية قوله « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » .

ونسب الوجود إلى العمل والذى يوجد هو جزاؤه لما للعمل من أثر فى نفس العامل ، فكأن الجزاء بمثابة العمل نفسه .

ثم ختم الآية بما يحث المرء على الإحسان فى العمل فقال :

(إن الله بما تعملون بصير) فهو عالم بجميع أعمالكم كثيرها وقليلها ، لا تخفى عليه خافية من أمركم ، خيرا كانت أو شرا وهو مجازيكم عليها ، ولا يخفى ما فى هذا من الترغيب والترهيب .

ومن مواعظ على كرم الله وجهه أنه كان إذا دخل المقبرة قال : السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات — ثم قال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، فهذا خبر ما عندنا ، فليت شعرى ما عندكم ، والذى نفسى بيده لو أن لهم فى الكلام لقالوا : إن خير الزاد التقوى .

وفى الحديث الصحيح « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » — والأول يشمل بناء المساجد ومعاهد العلم والمستشفيات والملاجئ والأحباس على المعوزين والمحتاجين ، والثانى ينضوى تحته ما يخلفه الإنسان من تصنيف نافع أو تعليم للعلوم الدينية ، وقيد الولد بكونه صالحا لأن الأجر لا يحصل من غيره ، أما الوزر فلا يلحق الأب سيئة ابنه .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ

وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

شرح المفردات

الأمانى واحدها أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه ، والعرب تسمى كل ما لاحجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورا وضلالا وأحلاما ، وإسلام الوجه لله هو الانقياد والإخلاص له فى العمل بحيث لا يجعل العبد بينه و بين ربه وسطاء يقربونه إليه زلفى ، و يقال فلان ليس على شيء من كذا أى ليس على شىء منه يعتدّ به و يؤبه به .

إجمال المعنى

ذكر عز اسمه فى هذه الآية حالين من أحوال اليهود ، أولاهما تضليل من عداهم وادعاؤهم أن الحق لايعدوهم وأن النبوة مقصورة عليهم ، وثانيتهما تضليل اليهود للنصارى وتضليل النصارى لهم كذلك ، مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود .

والعبرة من هذا القصص — أنهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم لا فى نفسه ولا فى غيره ، فطعنهم فى النبي صلى الله عليه وسلم و إعراضهم عن الإيمان به لا يثبت دعواهم فى أنه مخالف للحق ، فاليهود قد كفروا بعيسى وقد كانوا ينتظرونه ، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا التوراة وهى حجتهم

على دينهم ، فكيف بعدئذ يعتد برأيهم فى محمد صلى الله عليه وسلم وهو من غير شعبهم وجاء بشريعة نسخت شرائعهم .

وسبب نزول الآيات أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبى صلى الله عليه وسلم وكذب بعضهم بعضا ، فقال اليهود لبنى نجران : لن يدخل الجنة إلا اليهود ، وقالت بنو نجران لليهود لن يدخل الجنة إلا النصارى — وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح — فعقيدة كل من الفريقين فى الآخر كذلك .

الإيضاح

(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى) أى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى كذلك ، وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا .

(تلك أمانيهم) أى هذه الأمنية السالفة التى تشمل أمانى كثيرة كنجاتهم من العذاب ووقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم .

(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أى قل لكلا الفريقين هاتوا البرهان على ما تزعمون ، وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو فى عرف التخاطب تكذيب له ، لأنه لا برهان لهم عليه .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا يقبل من أحد قول لا برهان عليه ، والقرآن ملىء بالاستدلال على القدرة والإرادة والوحدانية بالآيات الكونية والأدلة العقلية كقوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » .

(بلى) كلمة تذكر جوابا لإثبات نفى سابق ، وردا لما زعموه فهى مبطلة لقولهم « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » أى بلى أنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، إذ رحمة الله لا تختص بشعب دون شعب ، بل كل من عمل لها وأخلص فى عمله فهو من أهلها .

(من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) أى كل من انقاد لله وأخلص فى عمله فله الجزاء على ذلك عند ربه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا

والآية ترشد إلى أن الإيمان الخالص لا يكفى وحده للنجاة ، بل لابد أن يقرن بإحسان العمل ، وقد جرت سنة القرآن إذا ذكر الإيمان أردفه بعمل الصالحات كقوله « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » وقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ » .

(ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى أن الذين أسلموا وجوههم لله وأحسنوا العمل لا تساور نفوسهم مخاوف ولا أحزان ، كما تختلج صدور الذين أشرب قلوبهم حب الوثنية ، وأعرضوا عن الهداية ، إذ من طبيعة المؤمن أنه إذا أصابه مكروه بحث عن سببه واجتهد فى تلافيه ، فإن لم يمكنه دفعه فوض أمره إلى ربه ولم يضطرب ولم تهن له عزيمة ، علما منه بأنه قد ركن إلى القوة القادرة على دفع كل مكروه وتوكل على من بيده دفع كل محظور .

أما عابدو الأوثان والأصنام فهم فى خوف مما يستقبلهم ، وحزن مما ينزل بهم ، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم داخلهم الهلع ولم يستطيعوا صبرا على البأساء ، وهم يستخذون للدجالين والمشعوذين ، ويعتقدون بسلطة غيبية لكل من يعمل عملا لا يهتدون إلى معرفة سببه .

ثم ذكر مقال كل من الفريقين فى الآخر :

(وقالت اليهود ليست النصارى على شىء) أى ليسوا على شىء من الدين يعتد به ، فهم قد كفروا بالمسيح مع أنهم يتلون التوراة التى تبشر به وتذكر من الأوصاف ما لاينطبق إلا عليه ، ولا يزالون إلى اليوم يدّعون أن المسيح المبشر به فيها لما يأت بعد ، وينتظرون ظهوره وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل .

(وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) أى ليسوا على شىء من الدين الصحيح ومن ثم أنكروا نبوة المسيح المتمم لشريعتهم .

(وهم يتلون الكتاب) أى قالوا ذلك وكتاب كل من الفريقين ينطق بغير مايعتقدون ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتى بعد موسى ، لكنهم خالفوها ولم يؤمنوا به ، والإنجيل يقول إنه (المسيح) جاء متمماً لناموس موسى لا ناقضا له ، وهم قد نقضوه .

والخلاصة — أن دينهم واحد ترك بعضهم أوله وبعضهم آخره ولم يؤمن به كله أحد منهم ، والكتاب الذى يتلونه حجة عليهم شاهد على كذبهم .

ثم بين أنهم ليسوا ببدع فيما يقولون ، بل قبلهم أمم قالت مثل مقالتهم .

(كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم) أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان ، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين : لستم على شىء ، والحق وراء هذه المزاعم ، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا فى أصوله ، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا فيه وتفرقوا طرائق قدداً .

(فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فهو العليم بما عليه كل فريق من حق أو باطل ، فيحق الحق ويجعل أهله فى النعيم ويبطل الباطل ويلقى أهله فى سواء الجحيم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ؟ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ

وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

شرح المفردات

الاستفهام هنا للإنكار ويفيد النفى ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه كما تقدم ، والمسجد موضع العبادة لله تعالى ، والمراد بخزى الدنيا الهوان والذل فيها ، والوجه الجهة ، فثم أى هناك ، واسع أى لا يحصر ولا يتحدد ، سبحان كلمة تفيد التنزيه والتعجب مما يقوله أولئك الجاهلون ، والقنوت الخضوع والانقياد ، والبديع بمعنى المبدع ، والإبداع هو إيجاد الشىء بصورة مخترعة على غير مثال سابق .

إجمال المعنى

يشير سبحانه فى هذه الآيات إلى ما وقع من تيطس الرومانى إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها حتى لم يبق منها حجراً على حجر، وهدم هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعثرة ، وأحرق بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك ، وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاما منهم إذ أخرجوهم من ديارهم ، وتحقيقاً لوعيد المسيح ، فتسللوا لواذاً على قلتهم حتى وصلوا إلى رومية ، فحرضوا تيطس على غزوهم فى بلادهم وكان له هوى فى ذلك ، فأجابهم إلى ما طلبوا وكان منه ما علمت .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) أى وأى امرىء أشد تعديا وجراءة على الله ومخالفة لأمره ، من امرىء منع من العبادة فى المساجد ، وسعى فى خرابها بهدمها أو تعطيل شعائر الدين فيها ، لما فى ذلك من

انتهاك حرمة الأديان المؤدى إلى نسيان الخالق ، ونشوّ المنكرات بين الناس ونشر الفساد فى الأرض .

(أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) أى أولئك المانعون ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع ، فكيف بهم دخلوها مفسدين ومخربين ، فما كانت عبادة الله إلا نافعة للبشر وما كان تركها إلا ضاراً لهم .

وقد توعدهم الله على ظلمهم بقوله :

(لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فخزى الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدى إلى الذل والهوان ، ولا ظلم أكبر من إبطال العبادة من المساجد والسعى فى خرابها ، وقد تحقق ما أوعد به الله فحل بالرومانيين الخزى فى الدنيا فتقسمت دولتهم وتشتت ملكهم ولحقهم الذل والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة ، وعذاب الآخرة هو ما أعده الله للفجار فى جهنم و بئس القرار .

(ولله المشرق والمغرب) أى له هاتان الجهتان المعلومتان لكل أحد والمراد رب الأرض كلها ، فهو كقوله « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » .

(فأينما تولوا فثم وجه الله) أى أى مكان تستقبلونه فى صلاتكم فهناك القبلة التى يرضاها الله لكم و يأمركم بالتوجه إليها ، فأينما توجه المصلى فى صلاته فهو متوجه إلى الله لا يقصد بصلاته غيره ، والله تعالى راض عنه مقبل عليه .

والحكمة فى استقبال القبلة — أنه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، وهو بهذه الطريقة محال على الله — شرع للناس مكانا مخصوصاً يستقبلونه فى عبادتهم إياه ، وجعل استقباله كاستقبال وجهه تعالى .

(إن الله واسع عليم) أى أنه تعالى لا يحصر ولا يتحدد ، فيصح أن يتوجه إليه فى كل مكان ، وهو عليم بالمتوجه إليه أينما كان ، فاعبدوه حيثما كنتم ، وتوجهوا إليه أينما حللتم ، ولا تتقيدوا بالأمكنة والمعبود غير مقيد .

وقد نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجيه إلى استقبال الكعبة فى الصلاة ،

وفيها إبطال لما كان يعتقده أرباب الملل السابقة من أن العبادة لا تصح إلا فى الهياكل والمعابد ، وإزالة لما قد يتوهم من أن الوعيد إنما كان على إبطالها فى الأماكن المخصوصة ، فأبان بها أن الوعيد إنما كان لإبطالها مطلقا ، لأن الله لاتحدده الجهات ، ولا تحصره الأمكنة .

(وقالوا اتخذ الله ولداً) فقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو من بعضها ، فإن أفرادها متكافلون فى كل مايعملون وما يقولون مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع .

(سبحانه) تنزيها له تعالى أن يكون له ولد ، إذ هذا الولد إما من العالم العلوى وهو السماء أو من العالم السفلى وهو الأرض ، وليس شىء منهما بمجانس له عز اسمه — إلى أن السبب المقتضى للولد هو الاحتياج إلى المعونة فى الحياة والقيام مقامه بعد الموت، والله منزه عن ذلك .

(بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون) أى ليس الأمر كما زعموا ، بل جميع ما فى السموات والأرض ملك له قانت لعزته خاضع لسلطانه منقاد لإرادته ، فما وجه تخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولداً مجانسا له « إِنَّ كُلُّ مَنْ فِى السموات وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمنِ عَبْدًا » .

نعم إن الله يختص من يشاء من عباده بما شاء من الفضل كالأنبياء صلوات الله عليهم ، ولكن هذا لا يرتقى بالمخلوق إلى أن يصل إلى مرتبة الخالق .

(بديع السموات والأرض) أى موجدهما اختراعا وابتكاراً لا على مثال سابق ، وإذا كان هو المبدع لهما والموجد لجميع من فيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شىء منهما على أنه مجانس له ، تعالى عن ذلك علوا كبيراً .

(وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى وإذا أراد إحداث أمر وإيجاده

فإنما يأمره أن يكون موجودا فيكون، والكلام تمثيل وتشبيه لتعلق إرادته بإيجاد الشيء فيعقبه وجوده ، بأمر يصدر فيعقبه الامتثال .

والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية عبر عنهما بما يقر بهما من الفهم وهو أن يقول للشيء كن فيكون .

وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ : لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٢٠)

شرح المفردات

لولا كلمة لحض الفاعل على الفعل وطلبه منه ، والآية الحجة والبرهان ، والتشابه التماثل ، واليقين هو العلم بالدليل والبرهان ، والحق هو الشيء الثابت المتحقق الذى لا شك فيه .

المعنى الجملى

كان الكلام فيما سلف فى الرد على من أنكر الوحدانية واتخذ لله شريكا — والكلام هنا فيمن أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطعن فى الآيات التى جاء بها وتجنى بطلب آيات أخرى تعنتا وعنادا كما جاء فى نحو قوله حكاية عنهم

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا » وقوله « لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

الإيضاح

(وقال الذين لا يعلمون) من المشركين ، لأنه لا كتاب لهم ولا هم أتباع نبىّ من الأنبياء حتى يتجلى لهم ما يليق بمقام الألوهية ، وما يصح أن يعطاه الأنبياء من الآيات .

(لولا يكلمنا الله) أى هلا يكلمنا الله بأنك رسوله حقا كما يكلم الملائكة ، أو يرسل إلينا ملكا فيخبرنا بذلك ، كما كلمك على هذا الوجه مع أنك بشر مثلنا .

وما مقصدهم من هذا إلا العناد والاستكبار و بيان أنه ليس بأحسن منهم حالا ، فلم اختص بهذا الفضل من بيننا ؟ .

(أو تأتينا آية) أى أو تأتينا ببرهان على صدقك فى دعواك النبوة ، ومرادهم بذلك ما حكاه الله عنهم بنحو قوله « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » الآية .

وهذا منهم جحود لأن يكون ما أوتيه من القرآن وغيره من المعجزات آيات كافيات فى إثبات ما ادعى من النبوة .

(كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) أى ومثل هذه الأسئلة التى يراد بها التعنت لا جلاء الحقيقة ، قد قالها من قبلهم من الأمم الماضية ، فقد قال اليهود لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » « وَلَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ » — إلى نحو ذلك وقالت النصارى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » ، فهذه أقوال صدرت عنهم للتشهى واتباع الهوى تعنتا وعناداً لا للوصول إلى كشف غامض وجلاء حقيقة كما قال تعالى « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ » .

ثم ذكر السبب فى اتحاد مقالهم ومقال من سبقهم فقال :

(تشابهت قلوبهم) أى تماثلت قلوب هؤلاء وقلوب من قبلهم فى العمى والقسوة والعناد ، والألسنة ترجمان القلوب ، والقلب إذا استحكم فيه الكفر والعمى لا يجرى على لسان صاحبه إلا ما ينبئ بالتباعد عن الإيمان من معاذير لا تجدى وتعلاّت لا تفيد .

فالحق واحد ، ومخالفته هى الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه ، وآثاره تتشابه حين تصدر عن الضالين حتى كأنهم متواصون به فيما بينهم كما قال تعالى « أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » .

(قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى أننا لم نتركك بلا آية ، بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالا للريب لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان ، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين ، ولن يكون هذا إلا لمن صفت نفوسهم وسلموا من العناد والمكابرة اللذين يمنعان من وصول نور الحق إلى القلوب ، وقد كان كبار الصحابة يراجعون النبى صلى الله عليه وسلم فيما لم يظهر لهم دليله ، لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالبينة .

(إنا أرسلناك بالحق) أى إنا أرسلناك بالشيء الثابت الذى لا تضل فيه الأوهام بل يسعد من أخذ به ويثلج قلبه بروح اليقين ، وهذا شامل للعقائد المطابقة للواقع وللشرائع التى توصل صاحبها إلى سعادة المعاش والمعاد .

(بشيرا ونذيرا) أى لتبشر من أطاع وتنذر من عصى ، لا لتجبر على الإيمان ، فلا عليك إن أصروا على الكفر والعناد « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » .

(ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) أى فلا يضرنّك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم ، فأنت لم تبعث ملزما ولا جبارا ، فتكون مقصراً إن لم يؤمنوا ، بل بعثت معلما وهاديا بالدعوة وحسن الأسوة ، كما قال : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم لئلا يضيق صدره كما قال تعالى : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » .

(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) الطريقة المشروعة للعباد تسمى ملة ، لأن الأنبياء أملّوها وكتبوها لأمتهم ، وتسمى دينا ، لأن العباد انقادوا لمن سنها ، وتسمى شريعة لأنها مورد المتعطشين إلى ثواب الله ورحمته .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به ، ومن ثم كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته ، وإلحافهم فى مجاحدته ، مع موافقتهم له فى أصل دينهم من توحيد الله وتقويم ما اعوج من الفطرة الإنسانية بما طرأ عليها من التقاليد الفاسدة بالمعارف الدينية الصالحة إلى أقصى حد مستطاع .

وفى الآية تيئيس له عليه السلام من طمعه فى إسلامهم ، إذ علق رضاهم عنه بما هو مستحيل أن يكون وهو اتباع ملتهم والدخول فى دينهم ، لأنهم اتخذوا الدين جنسية لا يرضون عن أحد إلا إذا دخل فى حظيرتها وانضوى تحت لوائها .

وكلامهم هذا يتضمن أن ملتهم هى الهدى لا ما سواها ، ومن ثم رد الله عليهم بقوله آمرا نبيه :

(قل إن هدى الله هو الهدى) أى أن الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه ، لا ما أضافه إليه اليهود والنصارى بالهوى والتشهى ، ففرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شىء .

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت ما أضافوه إلى دينهم وجعلوه أصلا من أصول شريعتهم بعد ما حصل لك من اليقين والطمأنينة بالوحى الإلهى الذى نزل عليك ، ومنه علمت أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل ، وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به .

(مالك من الله من ولىّ ولا نصير) أى فالله لا ينصرك ولا يساعدك على ذلك ،

إذ أن اتباع الهوى لا يكون طريقا موصلا إلى الهدى ، وإذا لم ينصرك الله ويتولّ شئونك فمن ذا الذى ينصرك من بعده ؟ .

وهـذا الإنذار الشديد والوعيد والتهديد وإن كان موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم الذى عصمه الله من الزيغ والزلل وأيده بالكرامة ، هو فى الحقيقة خطاب للناس كافة فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد جرى العرف فى خطاب الملوك أن يقال للملك : إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا ، ويراد إذا فعلته دولتك أو أمتك .

والكلام هنا جاء على هـذا الأسلوب ليرشد من يأتى بعده أن يصدع بالحق وينتصر له ولا يبالى بمن خالفه مهما قوى حزبه واشتد أمره ، فمن عرف الحق وعرف أن الله ولىّ أمره وناصره لا يخاف فى تأييده لوم اللائمين ولا إنكار المعاندين .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

المعنى الجملى

هـذه الآيات سيقت استدراكا على ما قبلها ، فإن ما تقدم كان تيئيسا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من إيمان أهل الكتاب وسلب ما كان يخالج نفوسهم من الرجاء ، وهنا أرشد إلى أن فريقا منهم يرجى إيمانهم وهم الذين يتدبرون كتابهم ويميزون بين الحق والباطل ويفهمون أسرار الدين ويعلمون أن ماجئت به هو الحق

الذى يتفق مع مصالح البشر ، فهو الذى يهذب نفوسهم ، و يصفى أرواحهم ، و ينظم معايشهم ، و به سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

و بعد أن أقام عليهم الحجة دعاهم وناداهم وطلب إليهم أن يتركوا الغرور المانع لهم من الإيمان ، إذ لاينبغى لمن كرمه الله وفضله على غيره من الشعوب أن يكون حظه من كتابه كحظ الحمار يحمل أسفارا .

الإيضاح

(الذين آتيناهم الـكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) أى ومن أهل الـكتاب طائفة تقرأ التوراة قراءة تأخذ بمجامع قلوبهم و تدخل فى شغاف أفئدتهم ، فيراعون ضبط لفظها و يتدبرون معناها و يفقهون أسرارها وحكمها ، أولئك هم الذين يعقلون أن ما جئت به هو الحق ، فيؤمنون به و يهتدون بهديه إلى سواء السبيل كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم .

(ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) أى ومن يكفر بما أنزل إليك بعد أن تبين له أنه الحق من الرؤساء المعاندين والجهال المقلدين (وكثير ما هم) فأولئك هم الذين خسروا سعادة الدنيا والمجد والسيادة التى يعطيها الله من ينصر دينه كما قال تعالى : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وخسروا نعيم الآخرة وحق عليهم العذاب الذى أعده الله للكافرين .

وكفرانهم به آت إما بتحريف كتابهم المبشر به حتى لا تنطبق البشارة عليه ، ليوافق أهواءهم ، و إما بإهماله اكتفاء بقول علمائهم الذين أضافوا إلى التوراة ما شاءوا ليشتروا به ثمنا قليلا .

وفى الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الـكتاب دون أن يتدبروا معانيه ، لاحظ لهم من الإيمان ، لأنهم لايفقهون هداية الله فيه ، ولا تصل العظة إلى أفئدتهم بتلاوته. وفى هذا عبرة لنا كما قال : « لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ »

فينبغى أن يكون ذلك حافزا لنا فى تدبر القرآن وفهمه لا قراءته لمجرد التلاوة كما قال تعالى : « أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » وقال : « لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

ولكن وا أسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرا فشبرا وباعا فباعا ، والقرآن حجة عليها كما جاء فى الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك » .

ومن يتله وهو معرض عن تدبره والتأمل فى العبرة منه يكن كالمستهزئ بربه ، وما مثله إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه مثنى وثلاث ورباع ويترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ، أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفى به عن إجابة طلبه أم يعده استهزاء به ؟

فعلى المؤمن فى كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والفهم والعمل بما فيه ، فإن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغى أن يطلب من أهل الذكر أن يفهموه معناه ويشرحوا له مغزاه .

(يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) هذا عظة لليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل ، وتذكير لهم بما سلف من نعمة الله على آبائهم بإنقاذهم من أيدى عدوهم وإنزاله المن والسلوى عليهم وتمكينه لهم فى البلاد بعد أن كانوا أذلاء مقهورين ، وإرساله الرسل منهم وتفضيلهم على غيرهم ممن كانوا بين ظهرانَيْهم ، حين كانوا مطيعين للرسل مصدقين لما جاءهم من عند ربهم — حتى يتركوا التمادى فى الغى والضلال ويثوبوا إلى رشدهم .

ومن أجل ما أنعم به عليهم التوراةُ التى أنزلت عليهم ، وذكرها يكون بشكرها ، وشكرها يكون بالإيمان بجميع ماجاء فيها ، ومن جملته وصف النبى صلى الله عليه وسلم فهو المبشر به فيها .

(واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) تقول جزى عنى هذا الأمر يجزى

كما تقول قضى يقضى ، زنة ومعنى ، أى واتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدلين كتابى، المحرفين له عن وجهه ، المكذبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم — عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئا من الحقوق التى لزمتها ، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، ولا تدفع عنها شيئا كما ورد فى الصحيحين « يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

(ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) العدل الفدية أى لا يؤخذ من نفس فدية تنجو بها من النار ، إذ هى لا تجد ذلك لتفتدى به ، ولا يشفع فيما وجب عليها من حق شافع ، وقد كانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه ، وبشفاعة أنبيائهم لهم ، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء به شىء آخر .

(ولاهم ينصرون) أى أنه لا يأتيهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم .

وهذا ترهيب لمن سلفت عظتهم فى الآية قبلها .

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) .

شرح المفردات

الابتلاء: الاختبار أى معرفة حال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه فعله أو تركه، والكلمات واحدها كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الكلام المفيد والمراد هنا معناها من أمر ونهى ، وأتمهن أى قام بهن خير قيام وأداهن أحسن التأدية بلا تفريط ولا توان ، وإماما أى رسولا .

المعنى الجملى

بعد أن حاج سبحانه أهل الكتاب وبيّن كفرهم بالنبى الذى كانوا ينتظرونه لبشارة كتبهم به ، ذكر هنا الأساس الذى بنى عليه الإسلام والنسب الذى يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب ، وهو ملة إبراهيم ونسبه ، فلا فضل إذا لليهود على العرب بأنهم يمتون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم ، إذ النسب واحد والملة واحدة .

فالقرآن حاج أهل الكتاب الذين جاء لإصلاح دينهم بما أدخلوه عليه من تحريف لبعضه ونسيان لبعضه الآخر ، وأثبت التوحيد والتنزيه لله تعالى ، وحاج أهل الشرك والوثنية التى جاء لمحوها ، تارة بالبراهين العقلية وتارة بالأدلة الكونية فى كثير من السور ولا سيما السور المكية .

الإيضاح

(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) أى واذكر لقومك المشركين وغيرهم حين اختبر إبراهيمَ ربُّه بعض الأوامر والنواهى عليه ، فأداها خير الأداء ، وأتى بها على وجه الكمال كما قال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » .

والمراد من ذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من الحوادث ، لأن الوقت محتو عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا .

والقرآن الكريم لم يعين الكلمات ، ومن ثم اختلفوا فيها فقيل هى مناسك الحج ، وقيل إنها الكواكب والشمس والقمر التى رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، والعرب التى خوطبت به كانت تعرف المراد منها .

(قال إنى جاعلك للناس إماما) أى قال إنى جاعلك للناس رسولا يؤتمّ بك ويقتدى بهديك إلى يوم القيامة ، فدعا الناس إلى الحنيفية السمحة وهى الإيمان بالله

وتوحيده والبراءة من الشرك ، وما زال هـذا جاريا فى ذريته ، فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولأجل هذا وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم .

(قال ومن ذريتى) أى قال واجعل من ذريتى أئمة يقتدى بهم ، وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة ، فتمنى لذريته الخير فى أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم ، ولا غرو فالإنسان يرجو أن يكون ابنه أحسن منه فى جميع ذلك .

(قال لا ينال عهدى الظالمين) أى قال أجبتك إلى ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولـكن عهدى بالإمامة لا يناله الظالمون ، إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس .

وفى ذكر الظلم مانعا من الإمامة تنفير لذرية إبراهيم منه وتبغيض لهم فيه ليتحاموه وينشّئوا أولادهم على كراهته ، كيلا يقعوا فيه ويحرموا من هذا المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها ، كما هو تنفير من الظالمين وعدم مخالطتهم .

فالإمامة الصالحة لا تكون إلا لذوى النفوس الفاضلة التى تسوق صاحبها إلى خير العمل وتزعه عن الشرور والآثام ، ولا حظ للظالمين فى شىء من هذا .

والخلاصة — أن الإمامة والنبوة لا ينالها من دنس نفسه ودساها بالظلم وقبيح الخلال ، وإنما ينالها من شرفت خلاله وكملت أخلاقه وصفت نفسه ، لأن أهم أعمال الإمام رفع الظلم والفساد حتى ينتظم العمران وتسود السكينة بين الناس .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا . وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ . قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) .

شرح المفردات

البيت غلب استعماله فى بيت الله الحرام بمكة ، مثابة أى مرجعا يثوب إليه هؤلاء الزوار وأمثالهم ، وأمناً أى موضع أمن ، ومقام إبراهيم هو الحجر الذى كان يقوم عليه حين بناء الكعبة ، والمصلى موضع الصلاة أى الدعاء والثناء على الله تعالى وعهد إليه بكذا إذا وصاه به ، والثمرات المأكولات مما يخرج من الأرض والشجر ، والاضطرار الإكراه يقال اضطررت فلانا إلى كذا أى ألجأته إليه وحملته عليه .

المعنى الجملى

ذكّر سبحانه العرب فى هذه الآيات بنعم أسبغها عليهم ومنن قلدها جيدهم ، وهى جعل البيت الحرام مرجعا للناس يقصدونه ثم يثوبون إليه ، وجعله مأمنا لهم فى هذه البلاد بلاد المخاوف التى يتخطف الناس فيها من كل جانب ، ودعوة إبراهيم للبيت وأهله المؤمنين ، وفى التذكير بهذا فائدة فى تقرير دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وأنها مبنية على أصول ملة إبراهيم الذى يحترمه العرب جميعا .

الإيضاح

(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) أى واذكروا حين أن جعلنا البيت الحرام مرجعا للناس يثوبون إليه للعبادة ويقصدونه لأداء المناسك فيه ، وجعلناه أمنا لاحترام الناس له وتعظيمهم إياه بعدم سفك دم فيه ، حتى كان يرى الرجل قاتل أبيه فى الحرم فلا يتعرض له بسوء ، ونحو الآية قوله فى سورة العنكبوت : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ؟ » .

(واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) أى وقلنا لهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وفائدة ذكر هـذا الأمر أن يستحضر السامع أو التالى المأمورين وكأن الأمر يوجه إليهم ، ليقع فى نفوس المخاطبين به أن الأمر يتناولهم وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم فى عهد أبيهم إبراهيم ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ له ، فنحن مأمورون بالدعاء فى مقام إبراهيم ، كما أمر به من كان فى عصره من المؤمنين .

(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) أى ووصينا إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوى كالشرك بالله وعبادة الأصنام ، أو رجس حسى كاللغو والرفث والتنازع فيه ، حين أداء العبادات كالطواف به والسعى بين الصفا والمروة والعكوف فيه والركوع والسجود .

وفى الآية إيماء إلى أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن بعده بهذه العبادات ، ولكن لا دليل على معرفة الطريق التى كانوا يؤدونها بها ، وسماه الله بيته لأنه جعله معبدا للعبادة الصحيحة ، وأمر المصلين بأن يتوجهوا فى عبادتهم إليه ، والحكمة فى ذلك أن الخلق فى حاجة إلى التوجه إلى خالقهم لشكره والثناء عليه والتوسل إليه لاستمداد رحمته ومعونته ، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبى لا يتقيد بمكان ولا ينحصر فى جهة ، فعين لهم مكانا نسبه إليه رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره ، والحضور الحقيقى محال عليه ، فالمراد أن رحمته الإلهية تحضره ، ومن ثم كان التوجه إلى هذا المكان كالتوجه إلى تلك الذات العلية لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا .

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً) أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة ، وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمنا فى نفسه من الجبابرة وغيرهم أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وزلزال وغرق ونحو ذلك مما ينبئ عن سخط الله ومثلاته التى تصيب سائر البلاد .

وقد استجاب الله دعاءه فلم يقصده أحد بسوء إلا قصم ظهره ، ومن تعدى عليه لم يطل زمن تعديه ، بل يكون تعديا عارضا ثم يزول .

(وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) أى وارزق أهله من أنواع الثمار إما بزرعها بالقرب منه ، و إما بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة ، وقد حصل كلاهما استجابة لدعوة إبراهيم كما هو مشاهد ، وقد جاء فى سورة القصص « أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » .

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين ، ولكن الله تعالى لواسع رحمته جعل رزق الدنيا عاما للمؤمنين والكافرين « كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً » ولكن تمتيع الكافرين قصير محدود بذلك العمر القصير ، ثم إلى النار و بئس المصير وهذا ما بينه الله بقوله :

(قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير) أى قال ياإبراهيم قد أجبت دعوتك ورزقت مؤمنى أهل هـذا البلد من الثمرات ، ورزقت كفارهم أيضا وأمتعهم بهذا الرزق أمدا قليلا وهو مدة وجودهم فى الدنيا ، ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوقا اضطراريا لا اختيار لهم فيه ولا يعلمون أن عملهم ينتهى بهم إليه .

ذاك أن أعمال البشر التى تقع باختيارهم ، لها آثار وغايات اضطرارية تنتهى بهم إليها وتكون نتيجة لهـا على حسب ما وضعه الله فى نظام الكون من وجود المسببات عقب وجود أسبابها ، فالإسراف فى الشهوات يفضى إلى بعض الأمراض فى الدنيا ، كذلك الكفار والفساق مختارون فى كفرهم وفسوقهم ، وستكون نتيجة ذلك سوقهم إلى عذاب النار بمقتضى السنن الموضوعة .

وكل أعمال الإنسان النفسية والبدنيـة لها الأثر الذى يفضى بصاحبها إلى السعادة أو الشقاء ، وهى أعمال كسبية اختيارية ، فالإنسان متمكن من اختيار الحق

وترك الباطل وترك الخبيث وفعل الطيب بما أعطاه الله من العقل وبما نزل عليه من الوحى ، فإذا حاد عن ذلك يكون قد ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التى مبدؤها كسبى وأثرها اضطرارى .

وهذه السنن بقضاء الله وتقديره ، ومن ثم يصح أن يقال إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأه إليه ، وجعل الأرواح المدنسة بالأخلاق الذميمة أو بالعقائد الفاسدة محل سخطه وموضع انتقامه فى الآخرة ، كما جعل أصحاب الأمراض القذرة عرضة للأمراض فى الدنيا .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

شرح المفردات

القواعد واحدها قاعدة وهى ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من الساقات (طاقات البناء) ورفعها إعلاء البناء عليها ، وتقبل الله العمل قبله ورضى به ، مسلمين أى منقادين لك يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ، والأمة الجماعة ، والمناسك واحدها منسك (بفتح السين) من النسك وهو غاية الخضوع والعبادة وشاع استعماله فى عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك فى معالم الحج وأعماله ، وتاب العبد إلى ربه إذا رجع إليه ، لأن اقتراف الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد رحمه وعطف عليه ، والكتاب القرآن ،

والحكمة أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة ، قال ابن دريد : كل كلمة وعظتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة ، ويزكيهم أى يطهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصى ، العزيز أى القوى الغالب ، الحكيم أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكّر سبحانه العرب بما أنعم عليهم من بناء البيت وجعله مثابة للناس وأمنا ، وبدعاء إبراهيم عليه السلام لقاطنى هذا البلد الحرام واستجابة الله دعاءه ، إذ جعله بلداً آمنا تجبى إليه الثمرات من شاسع الأقطار ليتمتع بها أهله ، وعهده إلى إبراهيم وإسماعيل بأن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود ، تنبيها لهم إلى أنه لا ينبغى أن يعبد فيه غيره ، فيجب تنزيهه عن الأصنام والتماثيل وعباداتها الفاسدة .

انتقل بهم إلى التذكير بأن الذى بنى البيت هو أبوهم إبراهيم بمعونة ابنه إسماعيل ، ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذى ينتمون إليه ويفاخرون به ، وقد كانت قريش تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل وتدعى أنها على ملة إبراهيم وسائر العرب فى ذلك تبع لقريش .

الإيضاح

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) أى واذكروا إذ يرفع إبراهيم قواعد البيت وأساسه ، وهذا نص فى أنهما هما اللذان بنياه لعبادة الله فى تلك البلاد الوثنية ، وجعلاه موضعا لضروب من العبادة التى لا تكون فى غيره ، وذلك هو مصدر شرفه لا بكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بأنه نزل من السماء ، فكل ما روى بصدد هذا فهو من الإسرائيليات

التى لا يعول عليها ولا ينبغى تصديقها ، ولا يقبلها العلماء الذين يفقهون أسرار الدين ويفهمون مراميه ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب عند استلام الحجر الأسود « أما والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ما قبلتك ، ثم دنا فقبله » رواه أحمد والبخارى ومسلم .

وفى هذا الأثر إيماء إلى أن الحجر لا مزية له فى ذاته ، بل هو كسائر الأحجار وإنما استلامه أمر تعبدى كاستقبال الكعبة فى الصلاة ، وجعل التوجه إليها توجها إلى الله الذى لا يحده مكان ولا تحصره جهة .

(ربنا تقبل منا) أى أن إبراهيم وإسماعيل كانا يقولان فى دعائهما وهما يرفعان قواعد البيت : « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا » .

(إنك أنت السميع العليم) أى ربنا أنت السميع لدعائنا ، العليم بنياتنا فى جميع أعمالنا .

وفى الآية إشارة إلى أن كل مأمور بعبادة إذا فرغ منها وأداها كما أمر وبذل أقصى الوسع فى ذلك — فعليه أن يتضرع إلى الله ويبتهل ليتقبل منه ما عمل ولايرده خائبا ولا يضيع سعيه سدى ، كما أنه لا ينبغى أن يجزم بأن عبادته متقبلة ، ولولا ذلك لما كان لهذا التضرع فائدة .

(ربنا واجعلنا مسلمين لك) أى ربنا واجعلنا مخلصين لك فى الاعتقاد بألا نتوجه بقلبنا إلا إليك ، ولا نستعين بأحد إلا بك ، وفى العمل بألا نقصد بعملنا إلا مرضاتك ، لا إتباع الهوى ولا إرضاء الشهوة .

(ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أى واجعل من ذريتنا جماعة مخلصة لك ، ليستمر الإسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة ، وقد أجاب الله دعاءهما وجعل فى ذريتهما الأمة الإسلامية وبعث فيها خاتم النبيين .

ومما سلف تعلم أن المراد بالإسلام الانقياد والخضوع لخالق السموات والأرض ، وليس المراد منه الأمة الإسلامية خاصة حتى يكون كل من يولد فيها ويلقب بهذه

اللقب ينطبق عليه اسم الإسلام الذى نطق به القرآن ويكون من الذين تنالهم دعوة إبراهيم صلوات الله عليه .

(وأرنا مناسكنا) أى عرفنا مواضع نسكنا أى أفعال الحج كالمواقيت التى يكون منها الإحرام ، وموضع الوقوف بعرفة ، وموضع الطواف إلى نحو ذلك من أفعاله وأقواله.

(وتب علينا) أى وفقنا للتوبة لنتوب ، ونرجع إليك من كل عمل يشغلنا عنك ، وهذا نظير قوله تعالى « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » .

وهذا منهما إرشاد لذريتهم وتعليم منهما لهم بأن البيت وما يتبعه من المناسك والمواقف أمكنة للتخلص من الذنوب وطلب الرحمة من الله .

(إنك أنت التواب الرحيم) أى أنت وحدك كثير التوبة على عبادك بتوفيقهم لحسن العمل وقبول ذلك منهم ، الرحيم بالتائبين المنجى لهم من عذابك وسخطك .

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) أى أرسل فى الأمة المسلمة لك رسولا من أنفسهم ليكون أشفق عليهم ويكونوا أعز به وأقرب لإجابة دعوته ، إذ أنهم يكونون قد خبروه وعرفوا منشأه ودرسوا فاضل أخلاقه من صدق وأمانة وعفة ونحو ذلك مما هو شرط فى صحة نبوة النبى .

وقد أجاب الله دعوته وأرسل خاتم النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا منهم ومن ثم روى الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى » .

(يتلو عليهم آياتك) أى يقرأ عليهم ما توحى إليه من الآيات التى تنزلها عليه، متضمنة تفصيل الآيات الكونية الدالة على وحدانيتك ومشتملة على إمكان البعث والجزاء بالثواب على صالح الأعمال والعقاب على سيئها ، فيكون فى ذلك عبرة لمن هداه الله ووفقه للخير والسعادة .

(ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى ويعلمهم القرآن وأسرار الشريعة ومقاصدها بسيرته بين المسلمين فيكون قدوة لهم فى أقواله وأفعاله .

(ويزكيهم) أى يطهر نفوسهم من الشرك وضروب المعاصى التى تدسّيها وتفسد الأخلاق وتقوض نظم المجتمع ، ويعودها الأعمال الحسنة التى تطبع فيها ملكات الخير التى ترضى المولى جل وعلا .

(إنك أنت العزيز الحكيم) أى أنت القوى الذى لا يغلب ولا ينال بضيم من توكل عليك ، الحكيم فى أفعالك فى عبادك ، فلا تفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وقد ختم إبراهيم دعواته بالثناء على ربه وذكر له من الأوصاف ما يشا كل مطالبه ، فوصفه بأنه العزيز الذى لا يردّ له أمر ، وأنه الحكيم الذى لا معقب لحكمه ، فمن الهين عليه أن يجيبه إلى ما طلب مما هو متنافر مع طباع العرب ، بعيد من معايشهم وأحوالهم ، فهم بعيدون عن ورود مناهل العلم ، وفيهم خشونة فى الطباع ، وغلظ فى الأكباد ، ليس لديهم استعداد لحضارة ولا مدنية ، وقد أجاب الله دعاءه وكوّن منهم أمة كانت خير الأمم سادت العالم وملكت المشارق والمغارب ردحا من الزمان وكان فيها رجال حفظ لهم التاريخ صادق بلائهم وعظيم سياستهم للشعوب التى انضوت تحت لوائهم ، بما لم تجارهم فيه أرقى الأمم مدنية فى عصرنا ، عصر الرقى والحضارة .

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ، قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

إلهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

شرح المفردات

رغب فى الشيء أحبه ورغب عنه كرهه ، وسفه نفسه أذلها واحتقرها ، واصطفيناه أى اخترناه وأصل الاصطفاء أخذ صفوة الشيء وهى خالصه ، أسلم أى أخلص لى العبادة ، والتوصية إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل على جهة التفضل والإحسان فى أمر دينى أو دنيوى ، مسلمون أى مخلصون بالتوحيد ، والشهداء واحدهم شهيد أى حاضر ، وحضور الموت حضور أماراته وأسبابه وقرب الخروج من الدنيا ، والأمة الجماعة ، وخلت مضت وذهبت ، لها ما كسبت أى ما عملت ، ولكم ما كسبتم أى فأنتم مجزيون بأعمالكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهن ، وأنه عهد إليه ببناء البيت وتطهيره للعبادة ، فصدع بما أمر ، أردف ذلك بذكر أن ملة إبراهيم التى كان يدعو إليها وهى التوحيد و إسلام القلب لله والإخلاص له فى العمل ، لاينبغى التحول عنها ولا يرضى عاقل أن يتركها إلا إذا ذل نفسه واحتقرها ، وبها وصى يعقوب بنيه ، ووصى بها من قبله إبراهيم بنيه ، ثم رد على شبهة لليهود إذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إن يعقوب كان يهوديا ، وكذبهم بمقال لبنيه له حين موته : نعبد إلهك و إله آبائك الإله الواحد .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام دعا ابنىْ أخيه سلمةَ ومهاجرا إلى الإسلام ، قال لهما قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة : إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد ، من آمن به فقد اهتدى ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم سلمة وأبى مهاجر .

الإيضاح

(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) أى إن ملتكم هى ملة أبيكم إبراهيم الذى إليه تنتسبون ، و به تفخرون ، فكيف ترغبون عنها وتحتقرون عقولكم وتدعون أولياء من دون الله لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً .

(ولقد اصطفيناه فى الدنيا و إنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى ولقد اجتبيناه من بين خلقنا ، وجعلنا فى ذريته أئمة يهدون بأمرنا ، وجعلناه فى الآخرة من المشهود لهم بالخير والصلاح و إرشاد الناس للعمل بهذه الملة .

ولا شك أن ملة هذا شأنها ، و بها كانت له المكانة عند ربه ، لا يرغب عنها إلا سفيه يعرض عن التأمل فى ملكوت السموات والأرض ورؤية الآثار الكونية والنفسية الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته .

وفى الآية بشارة لإبراهيم بصلاح حاله فى الآخرة وعِدَة له بذلك .

(إذ قال له ربه أسلم) أى اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من الآيات ونصب له من الأدلة على وحدانيته ، فلبى الدعوة .

(قال أسلمت لرب العالمين) أى قال أخلصت دينى لله الذى فطر الخلق جميعا ، ونحو هذا قوله : « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وقد نشأ إبراهيم فى قوم عبدة أصنام وكواكب ، فأنار الله بصيرته وألهمه الحق والصواب فأدرك أن للعالم ربا واحدا يدبره و يتصرف فى شئونه و إليه مصيره ، وحاج قومه فى ذلك و بهرهم بحجته فقال : « أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » إلى آخر الآيات التى جاءت فى سورة الأنعام .

(ووصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين) أى ووصى بهذه الملة التى ذكرت فى قوله : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ » إبراهيم أولاده

ووصى بها يعقوب من بعده أولاده أيضا ، قائلين لهم : إن الله اصطفى لكم دين الإسلام الذى لا يتقبل الله سواه .

(فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى فحافظوا على الإسلام لله ولا تفارقوه برهة واحدة ، فربما تأتيكم منايا كم وأنتم على غير الدين الذى اصطفاه لكم ربكم .

وفى هذا النهى إيماء إلى أن من كان منحرفا عن الجادّة لا ييأس ، بل عليه أن يبادر بالرجوع إلى الله ويعتصم بحبل الدين خيفة أن يموت وهو على غير هدى ، فالمرء مهدد فى كل آن بالموت .

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى

ثم أكد أمر الوصية وزاده تقريرا ، وأقام الحجة على أهل الكتاب فوجه إليهم الخطاب وقال :

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) أى أكنتم يامعشر اليهود والنصارى المكذبين محمدا الجاحدين نبوته- شهودا حين حضر يعقوب الموت ، فتدعون أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، فقد روى أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية ؟ .

وخلاصة ذلك — أنتم لم تحضروا ذلك فلا تدّعوا عليه الأباطيل وتنسبوه إلى اليهودية أو النصرانية ، فإنى ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية المسلمة ، وبها وصوا بنيهم وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم .

(إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى) أى أكنتم شهداء حين قال لبنيه : أىَّ معبود تعبدون من بعدى ؟ ومراده من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بثباتهم على الإسلام والتوحيد ، وأن يكون مقصدهم فى جميع أعمالهم وجه الله ومرضاته ، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان كما قال فى دعائه « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » .

(قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحداً ونحن له مسلمون) أى قالوا : نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسية على وجوده

ووجوب عبادته لا نشرك به سواه ، ونحن له منقادون خاضعون معترفون له بالعبودية متوجهون إليه عندالملمات، وقد كانوا فى عصر فشت فيه عبادة الأصنام والكواكب والحيوان وغيرها .

وجعلوا إسماعيل (وهو عمه) أبا تشبيها له بالأب ، وقد روى الشيخان قوله عليه السلام « عم الرجل صنو أبيه » .

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى ، وروحه التوحيد والاستسلام لله والإذعان لهدى الأنبياء ، وبهذا كان يوصى النبيون أممهم كما قال : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » .

فالقرآن يحث الناس على الاتفاق فى الدين الذى أساسه أمران أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له فى جميع الأعمال ، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم أى ليس على الدين القيم الذى كان عليه الأنبياء .

والناس يطلقون الإسلام اليوم لقبا على طوائف من الناس لهم ميزات دينية وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى ، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستسلما مخلصا لله فى أعماله ، بل قد يكون مبتدعا ماليس منه، أو فاسقاً عنه قد اتخذ إلهه هواه .

والإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يدع إلى الإسلام بمعنى ذلك اللقب المعروف اليوم .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) أى أن سنة الله فى عباده ألا يُجزَى أحد إلا بكسبه وعمله ، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله كما جاء فى قوله : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ

الَّذِى وَفَّى ، أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » وجاء فى الحديث « يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم » .

وقال الغزالى : إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمآن يروى بشرب والده وإن لم يشرب ، فالعاصى ينجو بصلاح والده .

ومن هـذا تعلم أن من يخاطب أصحاب القبور حين الاستغاثة بهم بنحو قوله (المحسوب منسوب) فقد ضل ضلالا بعيدا وخالف ما تظاهر من نصوص الدين التى تدل على خلاف ما يقول :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)

شرح المفردات

الحنيف المائل ، وأطلق على إبراهيم لأنه خالف الناس جميعا ومال عن الكفر إلى الإيمان ، والأسباط واحدهم سبط وسبط الرجل ولد ولده ، والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ، وما أوتى موسى هو التوراة ، وما أوتى عيسى هو الإنجيل ، والشقاق مأخوذ من الشق وهو الجانب ، فكأن كل

واحد فى شق غير شق صاحبه لما بينهما من عداوة ، والصبغة فى اللغة اسم لهيئة صبغ الثوب وجعله بلون خاص .

المعنى الجملى

بعد أن دعا سبحانه العرب إلى الإسلام وأشرك معهم أهل الكتاب لأنهم أجدر بإجلال إبراهيم واتباعه ، وفى أثناء ذلك بين حقيقة ملة إبراهيم على الوجه الحق لا كما يعتقده اليهود والنصارى ، ثم بين أن دين الله واحد على لسان النبيين جميعا ، والفوارق فى الجزئيات والتفاصيل لا تغير من جوهر الدين فى شىء ، وقد جهل أهل الكتاب هذه الحقيقة فقصروا نظرهم على ما امتاز به كل دين من التفاصيل والتقاليد التى أضافوها إلى التوراة والإنجيل ، فبعد كل من الفريقين من الآخر أشد البعد ، وصار كل منهما يحتكر الإيمان لنفسه ويرمى الآخر بالكفر والإلحاد .

الإيضاح

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) أى قالت اليهود لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها ، لأن نبيهم موسى أفضل الأنبياء وكتابهم أفضل الكتب ودينهم خير الأديان ، ويكفرون بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن ، وقالت النصارى : لا يتقبل الله إلا النصرانية لأن الهداية خاصة بها ، إذ عيسى أفضل الأنبياء وكتابهم أجل الكتب ، ودينهم خير الأديان ، وقد كفروا بموسى والتوراة ومحمد والقرآن ، ولو صح ما تقولون : لما كان إبراهيم مهتديا لأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، وأنتم جميعا متفقون على أنه سيد المهتدين وإمامهم ، ومن ثم رد الله عليهم بقوله :

(قل بل ملة إبراهيم حنيفاً) أى قل لهم : بل نتبع ملة إبراهيم الذى لا تنازعون فى هداه ، فهى الملة التى لا انحراف فيها ولا زيغ .

(وما كان من المشركين) أى ولم يكن إبراهيم ممن يشرك بالله سواه من وثن

أو صنم ، وفى هذا تعريض بأهل الـكتاب و بيان بطلان دعواهم اتباع إبراهيم مع إشرا كهم لقولهم عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله .

ودين إبراهيم الحنيف هو الدين الذى عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنون به .

و بعد أن أمر الله نبيه أن يدعو الناس إلى اتباع ملة إبراهيم ، وأمر المؤمنين بمثل ذلك فقال :

(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) أى قولوا آمنا بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين مع الخضوع والطاعة لرب العالمين ، فلا نكذب أحدا منهم فيما ادعاه ودعا إليه فى عصره ، بل نصدق بذلك تصديقا جمليا ولا يضيرنا تحريف بعض وضياع بعض ، فإن التصديق التفصيلى إنما يكون لما أنزل إلينا فقط .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة أن أهل الـكتاب كانوا يقرءون التوراة بالعبرية و يفسرونها بالعربية للمسلمين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الـكتاب ولا تـكذبوهم وقولوا آمنا بالله . الآية .

وروى ابن أبى حاتم عن مَعْقِل مرفوعا (آمنوا بالتوراة والإنجيل وليسعكم القرآن)

(لا نفرق بين أحد منهم) أى لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرهما من الأنبياء ، وتبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم وأقرت بغيره ، بل نشهد أن الجميع رسل الله بعثوا بالحق والهدى .

(ونحن له مسلمون) أى ونحن خاضعون له بالطاعة مذعنون له بالعبودية وذلك هو الإيمان الصحيح ، وأنتم لستم كذلك بل أنتم متبعون أهواءكم لا تحولون عنها .

(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) أى فإن آمنوا الإيمان الصحيح بالله و بما أنزل على النبيين والمرسلين كما نؤمن به نحن وتركوا ما هم عليه من ادعاء حلول

الله فى بعض البشر وكون رسولهم إلها أو ابن إله، فقد اهتدوا إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم ، ذاك أنه قد طرأ على إيمانهم بالله نزغات الوثنية وأضاعوا لُباب ما أنزل على الأنبياء وهو الإخلاص والتوحيد وتزكية النفس وتمسكوا برسوم العبادات ونقصوا منها وزادوا عليها مما بعدوا به عن مقاصد الأديان من حيث يدعون العمل بها كاملة غير منقوصة .

(وإن تولوا فإنما هم فى شقاق) أى وإن أعرضوا عما تدعوهم إليه من الرجوع إلى أصل الدين ولبه ، وفرقوا بين رسل الله فصدقوا ببعض وكفروا ببعض، فإن أمرهم يكون محصورا فى المشاقة والعداوة وكل ما يوسع مسافة الخلف بينكم وبينهم .

(فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) أى فسيكفيك الله إيذاءهم وسيئ مكرهم ويؤيد دعوتك وينصرك عليهم نصراً مؤزراً .

وقد أنجز الله وعده للنبى والمؤمنين ، فقتل وسبى بنى قريظة ، ونفى بنى النَّضير إلى الشام ، وضرب الجزية على نصارى نجران ، وهو سميع لما يقولون بألسنتهم ويبدونه بأفواههم من الدعوة إلى الكفر والضلال ، عليم بما يبطنون لك ولأصحابك المؤمنين من الحسد والبغضاء .

(صبغة الله) أى صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحق والإيمان بما جاء به الأنبياء والمرسلون ، ولا نتبع آراء الرؤساء وأهواء الزعماء وتقاليدهم الوضعية ، وهو زينتنا التى بها نتحلى كما يتحلى الثوب بالصبغ .

(ومن أحسن من الله صبغة) أى لا أحد تكون صبغته أحسن من صبغة الله ، فإنه هو الذى يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم به من أدران الكفر وينجيهم من الشرك ، فهى جماع كل خير وبها تتآلف القلوب والشعوب وتزكو النفوس .

أما ما أضافه الأحبار والرهبان من أهل الكتاب إلى الدين فهو من الصبغة البشرية والصنعة الإنسانية التى تجعل الدين الواحد مذاهب متفرقة ، والأمة شيعاً متنافرة .

(ونحن له عابدون) ولا نعبد سواه ، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابا يزيدون فى ديننا وينقصون ، ويحلون ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا صبغة التوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر التى تفضى إلى الإشراك بالله واتخاذ الأنداد له .

وفى الآية إيماء إلى أن الإسلام لم يشرع أعمالا خاصة يتميز بها المسلم من سواه ، كما شرع النصارى المعمودية ، بل المعول عليه ما صبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحب الخير والاعتدال كما قال تعالى : « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ؟ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) .

شرح المفردات

المحاجة المجادلة بدعوى الحق لدى كل من المتخاصمين مع إقامة الحجة على ذلك ، فى الله أى فى دينه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فى الآيات السابقة أن الملة الصحيحة هى ملة إبراهيم وليست هى باليهودية ولا النصرانية ، بل هى صبغة الله التى لا دخل لأحد فيها ، وهى بعيدة عن

اصطلاحات الناس وأوضاعهم ، ولكن نشأت بعد ذلك أوضاع الرؤساء فطمست ما جرى عليه الأنبياء حتى خفيت أوامرهم فيها إلى أن أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم ودعا الناس إلى الرجوع إليها وأرشد إلى الحق الذى عليه صلاح المجتمع فى دينه ودنياه ــ شرع هنا يبطل الشبهات التى تعترض سبيل الحق ، فلقن نبيه الحجج التى يدفع بها تلك المفتريات .

روى أن سبب نزول هذه الآيات أن اليهود والنصارى قالوا : يجب أن يكون الناس لنا تبعا فى الدين ، لأن الأنبياء منا والشريعة نزلت علينا ولم يعهد فى العرب أنبياء ولا شرائع ، فرد الله عليهم بما ستعلم بعد .

الإيضاح

(قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ؟) أى أتدّعون أن الدين الحق هو اليهودية والنصرانية ، وتقولون حينا : « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى » وحينا آخر تقولون : « كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا » ومن أين جاءكم هذا القرب من الله دوننا ، والله ربنا وربكم ورب العالمين ، فهو الخالق وجميعنا خلقه ، وإنما يتفاضل الناس بأعمالهم ، وآثار أعمالنا عائدة إلينا خيرا كانت أو شرا ، وآثار أعمالكم كذلك لكم على هذا النحو ، ونحن له مخلصون فى أعمالنا لا نبتغى إلا وجهه ، أما أنتم فقد اتكلتم على أسلافكم من الصالحين وزعمتم أنهم شفعاء لكم عند ربكم مع انحرافكم عن سيرتهم ، إذ هم ما كانوا يتقربون إلا بصالح العمل وصادق الإيمان ، فاجعلوهم رائدكم وانهجوا نهجهم تنالوا الفوز والسعادة .

وخلاصة ما سبق — أن روح الدين التوحيد وملاك أمره الإخلاص المعبر عنه بالإسلام ، فإذا زال هذا المقصد وحفظت الأعمال الصورية لم يغن ذلك شيئا ، وأهل الكتاب أزهقوا هذا الروح وحفظوا الرسوم والتقاليد ، فهم ليسوا على شىء من

الدين ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بما أحيا ذلك الروح الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين ، فهو الذى كمل شريعتهم بشريعته التى تصلح لجميع البشر فى كل زمان ومكان .

(أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى) أى أتقولون : إن اختصاصكم بالقرب من الله دوننا هو من الله وهو ربنا وربكم ، أم تقولون إن امتيازكم باليهودية أو النصرانية التى أنتم عليها إنما كان بأن هؤلاء الأنبياء كانوا عليها ، فإن كان هذا ما تدّعون فأنتم كاذبون فيما تقولون ، فإن هذين الاسمين إنما حدثا فيما بعد ، فما حدث اسم اليهودية إلا بعد موسى وما حدث اسم النصرانية إلا بعد عيسى ، فكيف تزعمون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا ، وقضية العقل شاهدة بكذبكم ؟ .

(قل أأنتم أعلم أم الله) أى أأنتم أعلم بالمرضى عند الله ، أم الله أعلم بما يرضيه وما يتقبله ؟ لاشك أن الله هو العليم بذلك دونكم ، وقد ارتضى للناس ملة إبراهيم وأنتم تعترفون بذلك وكتبكم تصدقه قبل أن تجىء اليهودية والنصرانية ، فلماذا لا ترضون لأنفسكم هذه الملة ؟ .

(ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) أى لا أحد أشد ظلما ممن يكتم شهادة مثبتة فى كتاب الله تبشر بأن الله يبعث فيهم نبيا من بنى إخوتهم وهم العرب أبناء إسماعيل .

وهم لا يزالون يكتمون ذلك ، فينكرون على غير المطلع على التوراة ، ويحرفون على المطلع عليها .

وخلاصة ما سلف — أنه أقام ثلاث حجج تدحض ما ادعوا :

(١) قوله : « وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » .

(٢) قوله : « أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ » الخ .

(٣) قوله : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً » الخ .

(وما الله بغافل عما تعملون) أي أن الله لا يترك أمركم سدى ، بل يعذبكم أشد العذاب ، وهو محيط بما تأتون وما تذرون ، ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد والتهديد عقب التقريع والتوبيخ .

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) أي أن جماعة الأنبياء قد مضت بالموت ، ولها ما كسبت من الأعمال ولكم ما كسبتم منها ، ولا يسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمل نفسه ويجازى به ، فلا يضره ولا ينفعه سواه ، وهذه قاعدة أقرتها الأديان جميعا وأيدها العقل كما قال : « أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » .

لكن غلبة الجهل جعلت الناس يعتمدون فى طلب سعادة الآخرة و بعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين ، وساعدهم على ذلك رؤساء الأديان فأولوا لهم نصوص الدين اتباعا للهوى ، ومن ثم جاء القرآن يقرر ارتباط السعادة بالكسب والعمل وينفى الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يقتد بهم فى صالح أعمالهم ، وقد حاج بذلك أهل الكتاب الذين يفتخرون بأسلافهم و يعتمدون على شفاعتهم وجاههم ليقطع أطماعهم فى تلك الشفاعة .

وعلينا معشر المسلمين أن نجعل نصب أعيننا ورائدنا فى أعمالنا تلك القاعدة — الجزاء على العمل — ولا نغتر بشفاعة سلفنا الصالح ونجعلها وسيلة لنا فى النجاة إذا نحن قصرنا فى عملنا ، فكل من السلف والخلف مجزى بعمله ، ولا ينفع أحداً عمل غيره .

وفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه « يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

تم تصنيف هذا الجزء فى الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان فى مدينة حلوان من أرباض القاهرة بالديار المصرية.

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء